تولستوي. . .!

محمود الخفيف

- 1 -

طفولة ونسب

أطل من نافذة قصر أنيق أقيم على مرتفع في ضيعة ياسنايابوليانا الجميلة، طفل في الخامسة من عمره، وقد أعجبه ذلك المنظر البهيج من حوله، ذلك المنظر الذي ألفته نفسه وباتت تأنس به روحه ويتعلق بجماله حسه.

كان الطفل يمد عينيه الصغيرتين الحالمتين إلى كل ما يحيط به إلى الغابات التي تتناثر هنا وهناك، والى النهر الذي تتثنى صفحته بين هاتيك الغابات فيظهر لعينيه جزء منه وتتوارى خلف الشجر أجزاء، ثم إلى القرية الهادئة التي تتراءى لعينيه من بين الخمائل التي تحيط بها على مقربة من النهر برك صغيرة وأخرى كبيرة، وتبدو كنيستها المتواضعة بجانب الأكواخ والعشش الصغيرة المبنية من الطين وجذوع الشجر، والتي يفصل بينها طريق عريض هو طريق القرية الرئيسي؛ ثم يمد الطفل عينيه إلى ذلك الطريق البعيد الذي سمع عنه فيما سمع أنه ينتهي عند مدينة تولا على مسافة عشرة أميال إلى الشمال وهي مسافة يصورها له خياله طويلة بعيدة؛ وكم يتمنى ان يرى مدينة نولا هذه التي يسمع عنها وعن حياتها الشيء الكثير. وثمة طريق آخر يمتد إليه بصره هو الطريق المؤدي إلى كييف، وإنه ليتمنى أن يرى كييف تلك المدينة التي يذكر اسمها الناس في احترام وتقديس، والتي يتقاطر إليها الحجاج مارين بضيعة أبيه وفي هذا الطريق القديم. . .

وإذا رد الطفل بصره وقع على الطريق المنحدر من القصر تحيط به أشجار الليمون ويقوم على جانبي مدخله برجان أبيضان جميلان. ولم يكد يتحول الطفل ببصره عما يرى حتى مشت في صفحة وجهه سحابة خفيفة من الهم، فقد تذكر أن عهده باللعب قد انتهى كما أخبرته العمة تاتيانا، وأنه من غده سيخل حجرة الدراسة كل يوم في ساعة معينة من النهار فلا يبرحها إلا متى شاء معلمه ان يطلقه. . . وهو منذ تلك السن يكره القيود كرهاً شديداً فكيف يطيق حجرة الدراسة ويطيق ان يأتمر بما يقضي به المعلم؟ ذلك ما كان يكرب نفسه الصغيرة، بعد أن اخذ ذلك المنظر بمجاميع عينيه، فهو يطل على مسارح لعبه ومجال حريته تحت هاتيك الخمائل وفي فناء ذلك القصر.

ولكن الصبي يعود فيذكر أن لا بأس من حجرة الدراسة وما فيها؛ أو ليس معنى غدوه إليها انه يغدو كبيراً فيقرأ ويكتب كما يقرأ اخوته ويكتبون؟ فلا يدل عليه أحدهم بشيء ينقصه هو ولا حيلة له في هذا النقص، ولا يفاخره منهم أحد بكتبه ودفاتره فسوف تكون له كتب ودفاتر. وتطيب نفس الصبي بهذه الأفكار فهو يكره اشد الكره أن يتفاخر عليه أحد، أو أن يشعر أنه دون من يحيطون به. وكثيراً ما دمعت عيناه غيظاً إذ يرى لغيره من دواعي الفخر ما ليس له. وهو سريع البكاء إذا غيظ لأنه لا يحب ان يغيظ أحداً.

فليقبل إذا على حجرة الدراسة في غير نكد بل ليقبل عليها في ارتياح. هكذا توحي إليه كبرياء نفسه الصغيرة، وانه منذ صغره لذو كبرياء، وإن كان إذا غضب سريع البكاء.

وكان للطفل واسمه ليو، ثلاثة أخوة أكبر منه وأخت هو أكبر منها. أما أخوته فهم: نيقولا وكان يكبره بخمسة أعوام، وسيرجي وكان يكبره بعامين ونصف، وديمتري وكان يكبره بعام وأربعة اشهر، وأما أخته فهي ماريا، وكانت دونه بسنة ونصف سنة.

وكانت تعيش مع صغار الأسرة بنت ليست منها وهي بنت غير سفيحة لأحد الأصدقاء المقربين من عميدها، وكان أبناء الأسرة يحسنون معاملتها كما لو كانت أختاً لهم، وماذا تصنع غير ذلك نفوس بريئة كهاتيك النفوس التي لم تدر بعد لؤم الحياة؟. . .

هؤلاء هم أفراد الأسرة الصغار؛ فأما الكبار ففي مقدمتهم أبوه، ثم تأتي بعد أبيه العمة تاتيانا، ولم يعرف الصبي منذ بدأ إدراكه أماً له غيرها، فقد ماتت أمه كما يذكر أحياناً أخوه نيقولا في همس وحزن عقب مولد أخته الصغيرة بأيام.

وهناك جدته لأبيه وهي تعيش في هذا القصر منذ مات زوجها، ثم عمته ألين التي جاءت لتعيش في حماية أخيها بعد أن أصيب زوجها بالجنون فقد بلغ به الجنون أن أطلق الرصاص ذات يوم على صدرها. وكانت ألين هذه عمته حقاً، أم تاتيانا فكان يناديها بالعمة كما يفعل اخوته؛ ولكن نيقولا يفهمه ذات مرة أنها ليست عمتهما فهي ليست أختاً لأبيهما فيعجب ليو لماذا إذا يدعوها الجميع عمتهم ولا يدرك مكانها من أبيه ولا موضعها من الأسرة، ولعل نيقولا كذلك لم يكن اقل منه جهلاً بهذا الأمر. وكيف يتسنى له أن يعرف إن أباه احبها في صدر شبابه وأنها أحبته ولكنها أفسحت له الطريق ليتزوج بسيدة غنية يصلح بثروتها حال معيشته إذ رأت منه هذا الميل على الرغم من حبه إياها حباً وثقت منه؛ وكانت تلك السيدة الغنية هي امه، فلما ماتت أمه عاد أبوه يطلب يدها فرفضت أن تتزوجه ولكنها وعدت أن تكون أماً أخرى لبني، وها هي ذي تبر بوعدها، فتكون لهم أماً في مكان أمهم.

لم يكن يعرف ذلك نيقولا مفصلاً هذا التفصيل فما يجدر ان يتحدث إلى الأطفال بمثل هذه الأمور، وحسب أولئك الأطفال أنها تحبهم وانهم يحبونها حباً شديداً، وعلى الأخص ليو فقد كان شديد الحب لها قوي التودد إليها. . .

على أن عطف العمة تاتيانا عليه لم يشغله منذ هذه السن الباكرة عن التفكير في أنها ليست أمه، وإن كان يرى منها مثلما يرى الأطفال من أمهاتهم؛ وإنه ليسأل نفسه أين أمه؟ لقد ذكر له نيقولا مرات إنها ماتت وإنه ليرى على وجه نيقولا إمارات الغم كلما أشار إلى ذلك وير كذلك دلائل الرهبة والألم. فما هذا الموت الذي حرمه من أمه؟ إن خياله يصوره له شيئاً كريهاً مخيفاً وإنه ليخاف من اسمه وينفر منه ولكنه لا يدري ما هو.

وإن الطفل ليرهف أذنيه كلما تحدث متحدث عن أمه، ولئن كان يحزنه أنه لم يرها فإنه يطيب نفساً بما يسمع من صفاتها والثناء عليها، وإنه ليجد من عطف عمته تاتيانا ما يخفف حزنه؛ ثم إنه ليزداد حباً لهذه

العمة كلما سمعها تذكر بالخير أمه، وتظهر الأسف على فقدها بكلماتها أو بما يبدو من صور الهم على ملامح وجهها. .

وتقع عينا الطفل في القصر على عدد من المربين والمربيات، ومن الخدم على اختلاف مراتبهم وتنوع أعمالهم؛ ويجد لأبيه السيطرة على هؤلاء جميعاً، فما يلقاه أحد منهم إلا بعبارات التجلة وتحيات الاحترام، فيداخل نفس الطفل شعور الفخر بجاه أبيه وعظمته، ثم انه إذا مثل بعض هؤلاء الفلاحين الذين يسكنون القرية القريبة بين يدي أبيه رآهم يحنون رؤوسهم خاشعين، ويخاطبونه بألقاب السيادة والعظمة، والسعيد منهم من ظفر بلثم يده إذا شاء أن يمدها إليه، ويعجب إذ يرى أباه يخاطبهم أحياناً في ازدراء ويعنف عليهم في لهجة الأمر والنهي، ويتساءل بينه وبين نفسه لم يترفع عليهم أبوه هذا الترفع، ولم لا يعاملهم كما يعاملونه، ولكن نيقولا يخبره إذا سأله ان الفلاحين في الضيعة كلها ملك أبيه وملك أجداده كما حدثته بذلك العمة تاتيانا.

على أنه يعلم فيما يعلم أن القصر والضيعة كانا من أملاك أمه ورثتهما عن آبائها من أسرة فولكنسكي، ولكن رأسه الصغير لا يتسع لما يقال عن نسب أمه ونسب أبيه، وإن أخاه نيقولا نفسه الذي كثيراً ما علمه ما لم يكن يعلم يبدو منه العجز والتناقض إذا تحدث عن هذا النسب، ولا تحدثه العمة تاتيانا عنه إلا بقدر ما تعتقد أنه يفهم.

لم يكن يستطيع الطفل في تلك السن أن يدرك حديث نسب أبيه ونسب أمه فإنه حديث طويل وتاريخ قديم. .

كان بطرس اندر فتش تولستوي أول فرع سامق من فروع أسرة تولستوي التي نبت أصلها في ألمانيا من زمن بعيد؛ وقد بدأ سموق هذا الفرع في عهد العاهل العظيم بطرس الأكبر الذي ولي أمر الروسيا في أواخر القرن السابع عشر.

حارب بطرس اندروفتش تولستوي في معركة أزوف عام 1696؛ وأرسله القيصر بعد ذلك إلى أوربا ليتعلم بناء السفن؛ وفي مستهل القرن الثامن عشر عينه سفيراً لروسيا لدى الباب العالي، ولما اشتبكت الدولتان في حرب عام 1710 ألقى به في سجن الأبراج السبعة، وكان يلقى فيه السلطان بالسفراء الذين يكون بينهم وبين دولهم حرب، ولما عاد بطرس إلى بلاده عام 1714 وصل إلى منصب الوزارة. . .

ولم ينس العاهل الجبار بطرس الأكبر صنيع وزيره هذا إذ أرسله إلى إيطاليا ليعود بابنه اليكسي، وكان قد هرب من بلاده خوفاً من غضب أبيه عليه لما كان من معارضته إياه في إصلاحاته، ولم يزل به ذلك الوزير الماكر يغريه ويمنيه، ويستعين عليه سراً بخليلته، حتى عاد به إلى روسيا حيث أسلمه إلى الموت نكال أبيه، وجزى بطرس رسوله بالمال والضياع المترامية. ومما يروى عن القيصر العظيم انه في أواخر أيامه كان يمس بكفه رأس وزيره قائلاً: (أيها الرأس. . .! أيها الرأس، لولا ما أنت عليه من مهارة لمضى اليوم زمن طويل على الإطاحة بك من فوق كتفيك).

ويأتي دوران الفلك إلى عرش روسيا بنجل اليكس بعد، فيكون أول ما يعنى به القيصر الجديد ان يقتص من ذلك الذي خدع أباه حتى جره إلى مواطن الحتف، ولئن سقاه أمس جده الكأس عسلاً فإنه اليوم يجرعه إياه علقماً، فقد جرده من القاب شرفه ونفاه إلى اركينجل نفياً لم تكن منه عودة. . .

على أن ذلك الفلك الدوار يضع على العرش عام 1741 القيصرة اليزابت ابنة بطرس الأكبر فترد إلى أسرة تولستوي شرفها وضياعها في شخص اندرو ايفانوفتش تولستوي حفيد ذلك الذي قضى نحبه في اركينجل.

وينمو من هذا الفرع الجديد السامق فرع هزيل رخو هو ابنه إليا تولستوي، فلقد كان ماجناً مستهتراً ضيق العقل، بسط يده كل البسط في ثروته العظيمة فبددها، ثم بدد بعدها ثروة زوجه الغنية، ولولا أن تداركه بعض ذوي النفوذ والثراء من أقربائه لحاق به سوء ما فعل، فبفضل هؤلاء عين إليا تولستوي حاكماً لقازان واستطاع أن يسترد بعض ما فقد. . .

ورزق حاكم قازان بغلام اسمه نيقولا، وترك له بعد موته ما بقي من أملاك الأسرة، وفي عهد نيقولا هذا وهنت ثروة الأسرة وهناً شديداً ولم تكن له يد في ذلك وإنما حدث هذا بسبب غيابه إذ أسره الفرنسيون، وكان لم يتجاوز الثامنة عشرة اثناء حملة نابليون على روسيا، وظل سجيناً بفرنسا حتى غلب نابليون على أمره فأطلقت سراحه جيوش الحلفاء الظافرة بعد دخولها باريس. . . ولم يجد نيقولا ما يرأب به ما تصدع ويصلح ما فسد خيراً من زواجه بات ثراء، وتم له ذلك بزواجه من ماري فولكنسكي العظيمة الثراء الكريمة المحتد.

وكان لأسرة فولكنسكي إلى الثروة وعراقة الاصل، الشمم والبطولة وقوة الروح واستقلال الرأي وصرامة العزم فتلك خلال ظهرت كلها أو بعضها في أفرادها، ومن هؤلاء ثائر اشترك في ثورة الديسمبريين وعوقب بالنفي ثلاثين عاماً في سيبريا حيث صحبته زوجته عن طوع، ومنهم ابن عم له خاض المعارك ضد نابليون في حماسة وبسالة اعجب بهما نابليون إعجاباً حمله على أن يرسل في طلبه وهو جريح أسير وعرض عليه أن يرد إليه حريته إذا قطع على نفسه عهداً إلا يحاربه مدة عامين ولكنه رفض هذا العهد في شمم وكبرياء. . .

وعرفت كذلك أسرة فولكنسكي بصلة النسب بين كثير من أفرادها وبعض ذوي المقدرة الفنية من المؤرخين والأدباء والنقاد والشعراء، وكانت تربط ماري كولكنسكي وشائج الرحم من بعد بشاعر روسيا الكبير الأكبر بوشكين.

وكانت ضيعة ياسنايا بوليانا من نصيب ماري فولكنسكي عند زفافها إلى نيقولاي تولستوي نالتها من أبيها كما نالت ذلك القصر الأنيق الذي استقرت فيه وزوجها عقب زواجهما، وكان ذلك القصر الأنيق الذي تستوقف الأعين أخشابه الزاهية اللون في وسطه ويمتد جناحاه الحجريان العظيمان يمنة ويسرة إلى مسافة بعيدة، يقع فوق مرتفع على مقربة من الضيعة. وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة 1828 ولد فيه لك الغلام الذي يقف الآن وهو في الخامسة من عمره يطل من شرفته على الضيعة والنهر

والغابات والقرية القريبة، ويذكر ما أخبرته به العمة تاتيانا في رفق وهو انه لم يعد بعده صغيراً وانه سيدخل حجرة الدراسة من غده فلا يبرحها إلا متى شاء معلمه أن يطلقه.

دخل ليو حجرة الدراسة وأسلم إلى مرب يعلمه ويقوم على تنشئته وكان هذا المربى ألماني الجنس وهو تيودور رويل، وكان من عادة سراة الروس أن يختاروا لأبنائهم مربين من الأجانب ليعلموا هؤلاء الأبناء اللغة الأجنبية التي تراد لهم وهم صغار وذلك بالحوار والمرانة لا بالقراءة في الكتب فحسب، ولقد كان تيودور رويل هذا من الشخصيات التي تأثر بها الصبي تأثرا شديدا منذ دخل حجرة الدراسة، والتي ظل أثرها عالقا بنفسه مدى حياته الطويلة؛ إذ كان المربي مستقيم الخلق كريم الطبع عطوفا على تلاميذه في غير ضعف، شديدا عليه في غير عنف مخلصا في عمله إذا هم بإبداء واجب، ولا يبخل بجهد يرى فيه صلاح تلميذه مهما أرهقه هذا الجهد، وبهذه الصفات الطيبة أو بهذه القدوة الحسنة أثر المعلم في تلميذه وهيأ الجو الصالح لنموا الصفات الطيبة في نفس ذلك الصبي. . .

فإذا انطلق الطفل من حجرة الدراسة كانت العمة تاتيانا أول من يلقى فما يطيق البعد عنها، وإن حبه إياها ليصغر دونه كل حب، وإن أثرها في نفسه ليقل عنده كل أثر، وسيكبر الصبي ويخرج من نطاق البيت إلى مضطرب الحياة ويظل أثر العمة تاتيانا قويا في نفسه، ويظل شخصها حيا في حسه، وتظل صورتها ماثلة في خاطره. وسيعبر عن هذا كله فيما يتناوله قلمه من ذكريات الحياة ومشاهدها. تجد مثلا لذلك في قوله (إني لأتذكر ذات يوم وأنا ابن خمس كيف اندسست خلف أريكة كانت تجلس عليها في الثوى، وكيف مدت إلى يدها ومست جسدي في حنو ورفق، وكيف أمسكت بيدي تلك اليد وقبلتها ودموع الحب في عيني. . . لقد كان للعمة تاتيانا أعظم الأثر في حياتي، فمنذ الطفولة الباكرة علمتني كيف تكون بهجة النفس في روحانية الحب، ولقد علمتني هذه الفرحة لا بكلامها فحسب بل إنها ملأتني حبا بكيانها كله. لقد رأيت ولقد أحسست كيف كانت تتمتع نفسها بنعمة الحب، ومن ذلك فهمت بهجة الحب، وهذا أول ما علمتنيه. ثم إنها بعد ذلك علمتني نعيم الحياة المطمئنة الهادئة).

وحق له يحب هذه السيدة التي يدعوها عمته كما يفعل أخوته والتي تقوم منهم جميعا مقام الأم وقد حرموا من أمهم. وكان ليو منذ صغره مرهف الحس متقد العاطفة تأسره الكلمة الطيبة وتثيره الكلمة القاسية فما يملك ان يحبس دمعه وعرفت عمته تاتيانا كيف توحي إليه ما تحب من المعاني العاطفية. . .

وليس يذكر ليو أمه فقد ماتت وهو دون الثانية بقليل، وكانت سيدة كريمة المحتد نبيلة الخلق عالية الثقافة، تقية رحيمة القلب مرهفة الحس مهذبة الذوق تتكلم خمس لغات ولها بالموسيقى شغف عظيم ولها مقدرة ملحوظة في العزف على البيان وموهبة في سرد القصص جعلت لها شهرة عظيمة في هذا الباب حتى لقد كانت في حفلات الرقص تجتذب إليها كثيرين ممن يفضلون أن يستمعوا إليها على ان يشهدوا ما يدور في تلك الحفلات، وكان الطفل يستمع إلى سيرتها في اهتمام كلما تحدث عنها الخدم أو تحدثت عنها العمة تاتيانا فتقوم في ذهنه صورة لها تطمئن لها نفسه ويبتهج فؤاده وتظل هذه الأحاديث تهجس في خاطره فتزداد صورة أمه وضوحا في نفسه كلما تقدم به العمر فإذا كتب عن أمه غدا فيما يكتب قال:

(لست أذكر أمي؛ لقد كنت ابن سنة ونصف حين ماتت، وبسبب مصادفة عجيبة لم تحفظ لها صورة على ذلك فلا أستطيع أن أرسم في خيالي صورتها المادية. وإني لفرح بهذا من وجهة نظر هي أن ما يقوم بذهني لها إذ أتصورها إنما هو صورتها الروحية، وكل ما أعلمه عنها من هذه الناحية جميل، وأظن إن ذلك لم يكن مرده إلى أن من يتحدثون عنها لا يذكرون لي إلا الخير وإنما كان مرده إلى إن نفسها كانت تنطوي على كثير من الخير حقاً.

ويبقى في ذاكرته من أحاديث الناس عنها الشيء الكثير ولكنه معجب بصفة من صفاتها يراها خير الصفات جميعا ويشير إلى ذلك في قوله (أن أرفع خلالها قيمة هي إنها كانت على حرارة مزاجها وبسرعة تأثرها تضبط نفسها أبدا، ولقد يحمر وجهها ولقد تبكي كما أخبرتني خادمتها ولكنها لا تلفظ قط لفظة نابية بل إنها لا تعرف واحدة من تلك الكلمات) ويقول عنها كذلك (إنها كانت تبدوا في خيالي مخلوقا علويا روحيا طهورا وبلغت من ذلك حدا جعلني في الحقبة الوسطى من عمري أيان جهادي ضد المغريات والوساوس القاهرة اتجه إلى روحها مصليا مبهلا إليها في صلواتي أن تأخذ بيدي. ولقد كان لي في أكثر الأحيان في هذه الصلوات كثير من العون).

ذلك أثر أمه في نفسه وإن لم يرها أما أبوه فقد كان يجلس ليو طيب قلبه وشدة عطفه على أبنائه، وكان يحب قصصه التي يتلوها عليهم أثناء الطعام كما كان يراه رفيقا بهم لا يعنفهم على زياطهم ولا يضيق بهم إذا دخلوا عليه حجرة مكتبه؛ وكان يعجب ليو بوجاهة أبيه وأناقة ملبسه إذا تأهب للذهاب إلى المدينة، وبمهارته ونشاطه وجمال طلعته إذا خرج للصيد. وكم كان ينظر إليه في إعجاب وهو جالس في مركبته وحوله عن قرب خدمه وكلاب صيده. . . كم كان يداخل الطفل شعور الإعجاب به لما يرى من هيبته؛ واستطاع خياله الناشئ واستطاعت عيناه الصغيرتان أن تنفذا إلى سر تلك الهيبة وهو احترام الرجل نفسه وصونه كرامته فما يطأطئ أبوه رأسه أو يخفض صوته أو يغير لهجته لدى أي كبير من الحاكمين مهما علا مقامه؛ ثم إنه يفطن إلى معنى آخر يحبب أباه إليه، وذلك إنه على ترفعه واستكباره أحيانا على مزارعيه يعطف عليهم فلا يرضى لهم بالعقوبة البدنية ولا يحب ان يرهقهم بالعمل فإذا حدث لهم شئ من ذلك كان على غير علم منه وإذا علم بشيء منه نهى عنه واشتد في النهي وأخلص فيه.

وسيرث ليو صفات أبيه فيكون عطوفا رؤوفا يكره العنف على المزارعين ويحب أن يعلمهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ؛ ولكنه كذلك سوف ينشا معتدا بذاته كثير الذهاب بنفسه سريع الميل إلى ازدراء غيره، ومهما حاول التغلب على تلك النزعات في طبعه غلبته على أمره في كثير من المواقف فيزهى ويتكبر ولا يقوم في نفسه إلا شعوره بما نشأ من أيامه من دلائل العظمة والثراء وعراقة الأصل، وحسبه أن ليس هناك في ياسنايابوليانا وما حولها قوم لهم السيادة والجاه منذ عهد بطرس الأكبر إلا آل تولستوي. . .

وأحب ليو اخوته حبا شديدا وأحب اللعب معهم كلما أطلقهم المربي من حجرة الدراسة؛ أحب أكبرهم نيقولا لأنه يعلمه كل شيء ولأنه عطوف عليه مرح فكه الحديث، يراه ليو لا يبارى في سرد الحكايات والقصص الجميلة وفي رسم الصور المختلفة والأشكال والألوان وأحب سيرجى لوجاهة منظره وأعجبه منه

حبه الغناء واللهو وكبرياؤه وعدم مبالاته بما عسى أن يقول عنه القائلون؛ أما ديمتري وهو أقرب الثلاثة إليه سنا فكان يأنس بهدوئه وابتسامته الحلوة وعاطفته الرقيقة. . .

وكانت من أحب الألعاب إليه تلك اللعبة التي ابتكرها نيقولا؛ فقد أسر إليه إنه اهتدى إلى نوع من السحر يستطيع به أن يجعل الناس جميعا على ظهر الأرض أحبابا بعضهم لبعض، وإن سحره هذا منقوش على غصن أخضر دفنه في مكان ما بالقرب من موضع حدده لهم، ثم دعاهم إلى الجلوس معا جنبا إلى جنب في بقعة صغيرة يظللهم سقف واحد كما تفعل النمل لتكون لهم مثل اخوة النمل ومحبة جماعاته، فاقبلوا حيث جلسوا تحت غطاء من القماش وضعوه على بعض الكراسي وتلاصقوا هنا وهناك في تعاطف ومودة وأخذ يحدثهم نيقولا إنه بالحب المشترك المتبادل يستطيع الناس أن يكونوا اخوة وهكذا صارت هذه اللعبة من أحب الألعاب إلى الاخوة، ولكم أن تجتمعوا تحت خوان أو في ركن من الأركان ومثلوا اخوة النمل، وأحدثت اللعبة أثرها في خيال ليو ووجدانه فقبل أن يبلغ السادسة من عمره يستقر في نفسه حلم لذيذ عن عالم جديد يرتبط فيه الناس بعضهم ببعض برباط الحب والمودة حتى يصبحوا بذلك إخوانا. . .

استقر هذا الحلم في نفس الطفل وهو دون السادسة ومازال مستقرا فيها حتى بعد أن جاوز السبعين من عمره فقد كتب إذ ذاك يذكر ذلك الحلم فقال (إن ذلك المثال وهو اخوة النمل وتعلقنا بعضنا ببعض متحابين أبقى قائما في نفسي لا يتغير وإن لم يعد كما كان أمس تحت قماش يظلل كرسيين عاليين فهو اليوم عندي تعلق البشر بعضهم ببعض متحابين تحت غطاء عظيم هو قبة السماء وكما صدقت يومئذ إن هناك عصا صغيرة خضراء نقشت عليها تلك الرسالة التي تمحق الشر كله في نفوس الناس وتهي لهم السعادة العامة فكذلك أعتقد اليوم ان هذه حقيقة ممكنة تنكشف للناس وسوف يمنحهم كشفها كل ما تعدهم به من سعادة).

ولقد أوصى تولستوي فيما بعد أن يدفن حين يموت حيث دفنت تلك العصا الخضراء. في تلك البقعة التي صارت حبيبة إلى قلبي من أجل ذلك الغصن الأخضر الذي أوحى إلى نفسي أن يتحاب الناس جميعا ويتآخوا على نحو ما تنطق به قصة أخيه؛ ولقد دفن فعلا الكاتب العظيم في الموضع الذي عينه أخوه مثوى للغصن الأخضر وذلك بعد ستة وسبعين عاما من قصة ذلك الغصن!

وحدثهم نيقولا حديثا آخر أبهج نفوسهم الصغيرة وملاها شوقا وتطلعا وذلك إنه سيقودهم إلى تل ما وسيبلغ بهم قمته، فإذا بلغوها وطلبت نفوسهم أي شئ فلا يلبثون دون أن يكون بين ايديهم، ولكنهم لن يقودهم إلى ذلك التل إلا أن يجيبوا إلى ما يطلب إليهم أداؤه، فعلى كل منهم أن يقف في ركن فلا يتجه ذهنهم لحظة إلى دب أبيض عي عليهم أن لا يخطر ببالهم هذا الدب، وعليه أن يمشي مستقيما على شق بين الألواح الخشبية فلا يميل، ثم عليه أن يمتنع عاما كاملاً عن رؤية أرنب حي أو ميت أو معد للمائدة، ومن أخذ نفسه منهم بهذه الشروط فليقسم أن تظل سراً لا يفشيه إلى أحد.

وكم أتجه ليو بخياله ووجدانه إلى ذلك الغصن الأخضر يود أن يعلم ما نقش عليه من سحر، وإلى ذلك التل العجيب يتوق أن يبلغ قمته، وما علمه أخوه إلا أخوة النمل وإلا تلك الشروط التي لابد من أداءها لمن يطمع أن يبلغ قمة التل. . .

ويتطلع ليو إلى سيرجي يريد أن يكون مثله، تحدثه نفسه إذا قارن بينه وبين نيقولا إنه يفضل أن تكون له وجهة سيرجي ولو أنه معجب بأقاصيص نيقولا وسحره ونكاته؛ وهو مولع بتقليد سيرجي فيما يعمل، ولكنه يألم ألا يستطيع أن تكون له مثل وجاهته فلم يجدي في ذلك تقليد، وكان وجاهة أخيه أحب صفاته إليه فما أشقاه أن تكون هي الصفة التي تستعصي عليه؛ وإنه مهما حاكاه في الغناء واللهو والاعتداد بالنفس فلن يزال يشعر بعدم الرضا ان لم يكن له ما لأخيه من حسن السمة وجمال الطلعة؛ وثمة شيء أخر لا يستطيع ليو ان يحاكى فيه أخاه، وذلك عدم مبالات سيرجي بما عسى أن يقول الناس عنه، فهو لم يكن يوماً معنياً بنفسه وإنما يسير على سجيته لا يشغل باله بالتفكير في ذاته، وقد خلق ليو على نقيض أخي فهو بنفسه معني منذ صغره، عظيم الاهتمام بآراء الناس عنه، شديد الإحساس بذاته، كثير الانطواء على نفسه، وتلك خلة أتعبته منذ نشأته وستكون منبع كثير من متاعبه في مستقبل الأيام.

ويتصف الطفل منذ نشأته بصفة لعلها وليدة شعوره القوي بذاته، وتلك هي سرعة بكائه، وما يبكي من غيض فحسب، فإن عينيه تدمعان إذا لقي حنواً أو مودة ممن هم أكبر منه، وإن عجباً أن يبكي في موضع السرور ليعبر بدمعة عن امتنانه، فهل كان لذلك سبب أخر هو إحساسه بيتمه منذ أن فطن إلى موت أمه؟ ولكنه بكاء شكاء من قبل أن يفطن إلى ذلك، وهو لا يملك أن يحبس دمعة إذا رأى غيره يبكي وأن لم يدر ما بكاؤه ولقد يغضب غيره حتى يبكيه ثم لا يستطيع إلا أن يبكي معه؛ كتب فيما بعد عما كان بينه وبين تلك البنت التي كان يربيها أبوها في أسرته فقال: (أتذكر أني أخذت وقد تعلمت الفرنسية أعلمها حروفها الهجائية، وسار ذلك سيراً طيباً أول الأمر، وكنا يومئذ كلانا في نحو الخامسة من عمره ولكن التعب أدركها فأمسكت عن نطق الحروف كما طلبت إليها، فألححت عليها فبكت ثم إذا بي أبكي مثلها، ولما دخل علينا من هم أكبر منا لم نجد ما نقوله بسبب ما كنا نذرف من الدمع).

وكان ليو أكثر من غيره من الأطفال حباً للثناء عليه وابتهاجاً بما يسمع من عبارته، وذلك أنه يفطن إلى أن الثناء عليه ينصرف بالضرورة إلى ما يبدي من دلائل الذكاء والنشاط والطموح، إذ ليس يطمع في ثناء عليه بسبب منظره أو ملاحة وجهه أو رشاقته كما عسى أن يطمع سيرجي أو نيقولا؛ فما أبعده عن ذلك كله، وهو شيء ليس في طوقه، وإن كان يتمنى بينه وبين نفسه لو وقعت معجزة فغيرت شكله إلى ما يحب من وجاهة وحسن؛ ولن تقع هذه المعجزة أبداً فليس له إلا أن يرقى بنفسه وبيدي مقدرته، ولهذا كان إذا دعي إلى عمل جمع عزمه وحرص الحرص كله على أن يكون في احسن حالاته، ومن ذلك ما يكون منه بين يدي أبيه حين يدعوه إلى تلاوة قصيدة من شعر بوشكين أو غيره من الشعراء، أو تلاوة أقصوصة من كتاب أو من ذاكرته أو حين يناقشه في دروسه ليعلم مبلغ فهمه.

وكان شغفه بالموسيقى عظيما يتفتح لها قلبه وتنفعل لها نفسه ويبتهج خاطره إذا سمع لحناً وانشغل غيره عنه فهو مقبل عليه بقلبه ولبه كأنه مسحور به لا يكاد يعي دونه شيئاً.

ويحب ليو الناس جميعاً لا يضمر سوءاً لأحد، ولا يتجهم لأحد، ويكره أن يرى شخصاً يتألم أو تمشي في وجهه كدرة الهم كما يكره أن يعبس أحدهم في وجه صاحبه أو يتكره له أو يتجهمه بالقول، فالصفا والمحبة والمودة من خصائص طبعه ومقومات خلقه غلام نابه.

تمكنت من نفس الصبي روح المحبة للناس جميعاً، ولسوف تتوثق على الأيام وتزداد فيكون لها أثرها البعيد في تكوين آراء الكاتب العظيم في غد، وفي توجيه روحه وتحديد مسلكه في مواطن كثيرة من مواقف حياته.

وكان يحب الطفل فيمن أحب في طفولته كبيرة الخدم العجوز التي لبثت من عمرها في القصر سنين طويلة لا يدرك مدى طولها، والتي تقص أجمل القصص عن أجداده وأحداث أسرته وتلاعبه وتضاحكه كلما ذهب إليها أو كلما لقيته في إحدى ردهات القصر أو حجراته، وتخبئ له الحلوى في ثيابها لتلاقيه بها

أو تفتح له خزانتها ليأخذ منها ما يحب؛ وكان كذلك يحب كبير خدم المائدة لأنه يهش له دائماً ويظهر المودة والعطف؛ والحق أنه كان يحب الخدم جميعاً وإنما يختص من هم أكثر تودداً أليه. دخل يوماً على العمة تاتيانا يشكو إليها أنه رأى منظراً كدره وآلمه، وذلك أنه شاهد أحد الفلاحين يساق إلى حظيرة حيث أوثقه رئيسه وضربه، ولما سألته عمته لِمَ لم يحل بينه وبين الضرب أطرق في خجل ولم يحر جواباً، وكأنما يزداد ألماً ألا يستطيع أن يتدارك ما فاته.

وبينما كان أفراد الأسرة كبارهم وصغارهم في الثوى الكبير ذات ليلة من ليالي الشتاء أشار الكونت نيقولا رب الأسرة بسبابته إلى الحجرة المقابلة وكانت مفتوحة، فوقعت أعين الجالسين على منظر أثار ضحكهم ودهشتهم فقد عكست المرآة فيها صورة أحد الخدم يمشي على أطراف أصابعه، وما زال حتى بلغ الصندوق الطباق فسرق منه قدراً وانصرف، وكان الكونت ينظر إليه ضاحكاً لم تزل عنه بشاشته، بل لقد صحب تلك البشاشة شيء من التسامح والرفق، ولما رأى ليو تسامح أبيه أمتلئ سروراً منه وازداد إعجاباً به، وعند انصرافه لثم يده في حماسة ظاهرة ليريه مقدار ما في نفسه من رضاء على ما أظهر من رحمة ورفق.

وامتد عطف الصبي حتى وسع الحيوان فقد أحزنه ذات يوم مرأى كلب مربية والخدم يشنقونه، وكان ذلك الكلب العزيز الرمادي اللون ذو العينين الجميلتين والشعر الناعم الجعد على حد وصفه قد أصيب بكسر ساقه إذ مرات فوقه عربة، فأعدم إذ لم تعد بهم حاجة إليه في الصيد؛ وعجب الصبي لما رأى بقدر ما تألم منه. وأنه ليروي هذا الحادث بعد فيما يروي من حوادث الصغر مما يدل على شديد تأثره به، قال: (كان الكلب يعاني الألم وكان مريضاً وقد شنق بسبب ذلك. لقد أحسست أن هناك خطأ فيما يقع، ولكني لم أجرؤ على الثقة في شعوري حيال ما أرى من تصميم ثابت من جانب قوم أحترمهم).

ووقف الصبي ذات يوم يمسح بكفه الصغيرة حصانة، وقد وثب عن ظهره إلى الأرض إذ نبهه أحد الفلاحين وقد رآه يضربه ألا جدوى من ضربه لأنه متعب، ونظر الصبي إلى الحصان وهو يلهث ويخرج أنفاسه في زفرات مؤلمة متقطعة، وجنباه يرتعشان والعرق يتبخر منهما، فبلغ من حزنه أنه (أخذ يقبل عنقه الذي بلله العرق ويسأله الصفح عما أوقع به من أذى). . .

وممن وسعهم عطف الصبي وشملهم بره أولئك الفقراء الذين كان يعدهم الناس من الصالحين الأولياء، وكانوا كثيرين في تلك المنطقة لقربها من كييف حيث يتقاطر الحجيج ليزوروا مواضعها المقدسة، وكان مرأى هؤلاء في أسمالهم البالية وبلاهتهم وتمتماتهم وعدم اكتراثهم لأي شيء أمراً يثير الدهشة في نفس الصبي كما يبعث فيها كثيراً من الرهبة، ويوحي إلى خياله أطيافاً مهمة وصوراً غامضة؛ وكان ينبئه أخوته أن في هؤلاء الصالحين سراً لا يمكن كشف يجعلهم على الرغم من حقارة مظهرهم وقذارة أسمالهم أقرب الناس إلى مرتبة القديسين، وقد وصف تولستوي هذه الطائفة في شخص (جريشا) الذي تحدث عنه في كتابه (عهد الطفولة) وقد كتبه وهو في الخامسة والعشرين من عمره قال: (كان جريشا شخصية مخترعة، وكان يغشى منزلنا كثير من هؤلاء البلة الطيبين، وقد علمت أن انظر إليهم نظرة الاحترام الشديد وهو

صنيع أحفظه لمن قاموا على تربيتي، ولئن كان بين هؤلاء من يعوزه الإخلاص أو من قضى فيما سلف أياما في حالة من الضعف والادعاء فإن غايتهم في الحياة كانت على ما يبدو من سخفها في الواقع بالغة السمو؛ حتى إنه ليسرني أني تعلمت في طفولتي على غير وعي مني ما وصلوا إليه بأعمالهم من علو، لقد صنعوا ما تحدث عنه ماركس اورليوس حين قال: (ليس هناك أسمى من أن يتحمل المرء الازدراء من أجل أن يحيا حياة صالحة طيبة) أن الطموح الإنساني إلى المجد والعظمة أمر لا يمكن تجنبه وهو كذلك بالغ الضرر إذ أنه يفسد كل عمل حميد، فلا يسع المرء إلا العطف على أولئك الذين لا يقتصرون على بذل جهدهم لتجنب أن يحمدوا فحسب بل ويتعرضون فوق ذلك للاحتقار. . .

ومما كان يبهج نفس الصبي ويحبب إليه الحياة ما كانت تحتشد له الأسرة من مظاهر الفرح في أعيادها وعلى الأخص عيد الميلاد، فكانت تشيع البهجة في البيت كله فترى دلائلها في كل وجه وتحس روحها في كل ناحية، فرب الأسرة وسيداتها وأبناؤها وجميع من في القصر من خدم يتبادلون المحبة والمودة ويبدون سعداء في ثيابهم الجديدة ويستمتعون بما طاب من الطعام والشراب، حتى الفلاحين ينالهم حظ من هذا الفرح فتطيب نفوسهم وهذا ما ينشرح له صدر الصبي.

وكان خروجه إلى الغابة للصيد مع أبيه واخوته في العربات الجميلة أو على ظهور الخيل المسومة الفخمة يحيط بهم رهط من الأتباع وعدد من كلاب الصيد مما يملأ قلب الصبي سروراً وبهجة، وكثيراً ما كان يبهجه كذلك الخروج إلى الغابة لغير الصيد في صحبة العمة تاتيانا أو في صحبة جدته أو غيرهما من المربين فيرتع ويلعب ويقتطف ما شاء من الزهر، ويستمع إلى القصص حتى يعود إلى البيت وهو يطفر كما يطفر العصفور من فرط المرح. وفي ليالي الشتاء كان تحلق الأسرة حول الموقد والاستماع إلى الموسيقى أو القصص الممتعة، وتبادل العطف بين الكبار والصغار وبين بعضهم مع بعض مما يحبه الصبي ويأنس به ويحرص كل الحرص على شهوده. . .

وليس ثمة إلا حجرة الدراسة تخلو من البهجة ويلقي فيها من درسه عنتاً ورهقاً، على أن عطف معلمة عليه يخفف عنه، ورغبته في أن يرقي بنفسه ويكتسب من دواعي الفخر ما يباهي به اخوته يجعله يتكئ على نفسه ويصبر على مكاره الدرس.

وفيما عدا هذا كانت طفولته بهيجة محببة إلى نفسه ولن تجد وصفاً لهاتيك الأيام السعيد الحلوة أبلغ مما كتبه عنها بعد ذلك في أول كتاب له وهو كتابه (عهد الطفولة) قال (ما أسعد هاتيك الأيام الحلوة أيام الطفولة التي لا تنمحي ذكراها، وكيف ينسى امرؤ أن يحب ذكرياتها وأن ينعم بها؛ أن هذه الذكريات لتنعش روحي وتسمو بها، وهي المنبع لأعظم فيض من السرور يغمرني، وأي وقت هو خير من ذلك الوقت الذي لا يكون للحياة فيه من دوافع غير دافعين هما في الفضائل أجمل فضيلتين: اللهو البريء ورغبة النفس في الحب رغبة لا تحد).

غلام نابه

-4-

كان كلما اقترب ليو من أخوته سمعهم يتحدثون عن موسكو وعن الرحيل إلى موسكو فيرفع بصره إلى وجوههم يتبين هل ثمة فيها شيء من الهم لقرب هذا الرحيل؛ فإن الهم ما يبرح يهجس في خاطره منذ ان علم بقرب انتقالهم إلى موسكو؛ ولكن الغلام لا يجد في وجوههم أية أماره لذلك الذي يعتلج في نفسه من الحزن كلما تطرق الحديث إلى موسكو أو كلما وقع بصره على ما يلمح إلى الرحيل أو يشير إليه، ومن ذلك تلك السراويل الجديدة ذات الأشرطة الزاهية يقلبها أخوته بين أيديهم فرحين؛ وإنه ليشاركهم فرحهم بها وما ينقم منها إلا إنها سوف لبس في موسكو؛ فعما قريب يرحل مع أخوته ليتعلموا في تلك المدينة الكبيرة؛ وإنه ليعجب كيف يطيقوا الرحيل عن يا سنايا بوليانا فيتحدثون عن ذلك الرحيل ضاحكين مستبشرين ويقع الحديث من نفسه موقعاً أليماً.

وهل كان يطيق البعد عن ذلك القصر وعن تلك المدينة وعن هاتيك الغابات التي أحبها وألف المرح في أرجائها؟ وهل كان يطيق البعد عن العمة تاتيانا وهو لا يجد له أُماً غيرها؟ ومن ذا يكون مربيه في موسكو مكان تيودور رويسل؟ وهل هو واجد في موسكو ما يجده هنا من مسرات الحياة ولهوها؟ أيطيق ألا يرى الخدم الذين احبهم وأحبوه والخيل وكلاب الصيد التي أولع بها وأحب ان يراها كل يوم؟ ولكن ما من الرحيل بد فليس له إلا أن يصبر عليه. . . بهذا كان يتحدث الغلام إلى نفسه أو بهذا كانت تحدثه نفسه.

وحان يوم الرحيل؛ ومسح الغلام عينيه وقد انطلقت به وبأخوته العربة إلى موسكو فما يجدر به أن يبكي وهو ابن ثمان، وهؤلاء اخوته حوله لا يبكون بل ليكترثون لشيء كأنما هم ذاهبون كما كانوا يذهبون بالأمس إلى الصيد في الغابة!

ونظر الغلام في موسكو إلى مربيه الفرنسي الجديد سنت توماس فإذا هو تلقاء رجل لا يحس في وجهه ما كان يحس في وجه تيودور رويسل من عطف ومحبه وإخلاص، وما لبث أن وجده يعنف عليه كأشد ما يكون العنف، فيحبسه في حجرته ويتهدده بالعصا، الأمر الذي أغضبه أشد الغضب وكره إليه الغلظة والعنف ونفره من العقوبة البدنية ومن صور القسوة جميعاً طيلة حياته؛ كتب بعد ذلك في مذكراته يشير إلى هذا الحادث فقال (حبسني سنت توماس أولا في حجره ثم جاء يتهددني بالضرب بعصاه، ولست اذكر الذنب ولكنه كان أمراً لا يستحق العقاب البتة؛ وعندئذ ذقت شعوراً مخيفاً هو مزيج من الغضب والاحتقار والاشمئزاز، ولم يكن ذلك نحو سنت توماس فحسب، ولكن نحو القسوة التي يتهددني بها كذلك).

وأكبر الظن أن مربيه ما فعل هذا إلا لإهماله وانصرافه عن الدرس، وعناده إذا دعاه إلى العمل؛ ولم يتجن عليه سنت توماس فهذا أحد لداته قد تحدث عنه وعن أخوته فقال: (يرغب نيقولا في التعلم ويقدر عليه، ويقدر سيرجي على العلم ولكنه لا يميل إليه، ويميل ديمتري ولكنه لا يقدر، أما ليو فإنه لا يقدر)

ولكن مربيه على الرغم من ذلك موقن من ذكائه ومن موهبة فيه عبر عنها بقوله (إن لهذا الغلام رأساً. . . إنه موليير صغير).

وماذا كان في رأسه يومئذ حتى يسميه مربيه هذا الاسم؟ لعل مرد ذلك إلى نفاذ عينيه إلى ما تقعان عليه، ونفاذ بصيرته إلى أفعال أخوته ولداته من التلاميذ وتفطنه إلى خصائص كل منهم، فالغلام على حداثته يقظ مرهف الحس، دقيق الملاحظة للناس وللأشياء جميعاً.

وهو وإن لم يتجاوز الثامنة بعد، تطوف بقلبه الغض عاطفة الحب، ولم يكن هذا الحب الجديد كذلك الذي يحسه نحو العمة تاتيانا أو نحو غيرها ممن أولوه مودتهم وعطفهم من أفراد الأسرة ومن الخدم، وإنما كان حباً كذلك الحب الذي قلما خلا منه قلب فتى أو فتاه في ربيع العمر؛ ويميل بعض علماء النفس إلى عد هذه العاطفة في مثل هذه السن الباكرة دليلاً على الموهبة الفنية، ولذلك يرجى لصاحبها أن يكون في غده من الأفذاذ. . .

أحب ليو تلك البنت الصغيرة التي عاشت بين أفراد الأسرة في كنف عميدها الكونت وكانت تسمى اسْلنيف، وأحب في موسكو غلاماً صغيراً من أبناء عمومته من البوشكين، وقد بلغ من حبه إياه أنه كان ينعقد لسانه إذا وجد نفسه تلقاءه من فرط إحساسه بعاطفته؛ وكذلك أحب بنتاً لا تكبره في العمر جميلة زرقاء العينين تدعى سونشكا، وكان يشعر بين يديها بفيض من السرور والمودة والرفق، فإذا غابت فإن ذكر أسمها كان يملأ مقلتيه بدموع الفرح من فرط نشوته، وكانت عاطفته نحوها عميقة بالغة العمق صادقه خالصة الصدق بريئة من كل شائبة أو غرض، حتى لقد أتخذها في مستقبل أيامه مقياساً يرجع إليه إذا شاء أن يقارن بين حالات شعوره. . .

أما اسْلنيف فكان يغار عليها كأشد ما تكون الغيرة، لا يطيق أن تحدث شخصاً غيره كبيراً كان أو صغيراً أو تتجه حتى بنظره إليه، وكان يعسف عليها ويعصف في وجهها إذا وجد منها ما يظنه ميلاً إلى غيره حتى إنه دفعها مره من شرفه حيث كانا يلعبان وقد بلغت بها الجرأة أن كلمت غلاماً أمامه فسقطت ولحق بها العرج من جراء ذلك بضع سنين، وبعد قرابة ربع قرن من هذا الحادث شاءت الأقدار أن يتزوج ليو من ابنة هذه التي غدت سيده أنجبت بنات وبنين، وأصبحت أم زوجته فقالت ضاحكه تذكره بذلك الحادث (أكبر الظن أنك دفعتني من الشرفة إبان طفولتي لكي تتزوج بابنتي فيما بعد).

وذاق الغلام في موسكو لوعة الحزن كما ذاق فرحة الحب، فقد مات أبوه وكان في طريقه إلى مدينة تولا في صيف سنة 1837 وسقط في الطريق جسماً لا حراك به، فمن قائل انه مات بنوبة من نوبات القلب، وآخرون يهمسون أن السم أودى به على يد فلاح ممن ملكت يداه؛ ويتسلط على رأس الغلام خيال عجيب فهو يحس أن أباه حي لم يمت ولا يستطيع أن يتصور أنه مات حقاً على الرغم من أن أخاه نيقولا قد شهد دفنه في ياسنايا بوليانا؛ وإنه لينقل بصره بين وجوه المارة في شوارع موسكو يتوقع ان تقع عيناه على أبيه، وظل هذا الخيال بضعة اشهر متسلطاً عليه.

ويتفكر الغلام مرة ثانية في الموت والحياة، فقد تفكر في ذلك حين أدرك أن عمته تاتيانا ليست أمه وعلم من نيقولا بموت أمه؛ ولقد أحس يومئذ أن الموت شئ كريه مخيف، ولكنه لم يدرك كنهه، وهو كذلك يحس اليوم مثلما أحس بالأمس، وإن كان يصحب تفكيره هذه المرة شئ من التفكير والدهشة، وسيظل هذا شأنه كلما نظر في الموت حتى يجاوز الثمانين من عمره فيطويه ذلك الشيء الكريه المخيف وهو لم يعد من طول النظر في أمره بشيء.

ولم تكد تمضي تسعة أشهر على وفاة أبيه حتى ماتت جدته محزونة على ابنها؛ وجاء المربى يحمل النبأ إلى الصبية وهم يلعبون، فأنقلب فرحهم وزياطهم إلى وجوماً وسكوناً، وأرهف ليو أذنيه ودار بعينيه يسمع ويرى، فكم كره مرآى الحانوطية على مقربه من البيت في ملابسهم السوداء، وكم بث في نفسه الخوف رؤية التابوت بين أيديهم ووجوههم كئيبة عابسة من أثر ما يتكلفونه من الحزن؛ على أنه يطيب نفساً بما يشاهد من مظاهر العطف عليه وعلى أخوته وبما يسمع من عبارات الرثاء لهم والإشفاق عليهم وإن كان ذلك يزيد إحساسه باليتم؛ ولقد تندت عيناه ذات مره متأثرة بكلمة عطف سمعها من سيده إذ قالت لجارتها (إنهم اليوم أيتام كل اليتم فقد مات أبوهم منذ قليل، وهاهي ذي جدتهم كذلك يأخذها الموت).

وينظر الصبي إلى حلته السوداء المخططة الحوافي بخيوط بيضاء وهو يرتديها حداداً على فقد جدته وقد صنعت لهذا الغرض خاصة ويعجبه منظره في هذه الحلة فينسى بعض ما يمسه من حزن.

وللغلام في هذه السن الباكرة اشتغال بما يعد الاشتغال به من أعجب الأمور ممن كانوا في مثل سنه، وذلك هو نظره في الدين ومسائله، ولندع تولستوي نفسه يتحدث عن ذلك قال في مستهل كتابه (اعترافاتي) إني اذكر كيف زارنا ذات يوم من أيام الآحاد فيفي الحادية عشره من عمري غلام يدعى فالرمير موليتين كان في إحدى المدارس الابتدائية وراح يقص علينا ما سماه أحدث الطرائف من الأنباء ألا وهو كشف اتفق وقوعه في مدرسته، ومؤدى ذلك الكشف إنه ليس لهذا العالم إله، وأن كل ما قلناه عنه إن هو إلا محض اختراع. وإني لأذكر مبلغ ما داخل أخوتي من سرور عند سماع ذلك، لقد دعوني إلى مجلسهم واذكر أننا جميعا شعرنا شعور النشوة لهذه الانباء، وتلقيناها كأمر سار ممتع ممكن الحدوث كل الإمكان).

وعرف الغلام منذ حداثته بقوته البدنية وحيويته المتوثبة، تبين ذلك من حادثة تقصها أخته ومؤداها أن أخاها انزل من إحدى العربات ذات مرة وقد توقفت عن السير لأمر ما فظل ماشيا حتى أوشكت العربة أن تدركه فأخذ يعدو عدوا سريعا كيلا تدركه وأخوته في العربة يعجبون من سرعة عدوه وطول نفسه؛ ولم ينقطع نفسه إلا بعد ميلين فصعد إلى العربة وهو يلهث ولكنه يحاول أن يخفي تعبه؛ ولسوف تلازمه هذه القوة البدنية وهذه الحيوية على الرغم مما ينتابه أحيانا من أسقام وآلام حتى يطويه الموت بعد أن يجاوز الثمانين.

وكان ليو منذ صغره مولعا بركوب الخيل، وقد تعلم الركوب في سن مبكرة على الرغم من معارضة أمه إياه في لك؛ وقد رأى أخويه اللذين يكبرانه يمتطيان جواديهما ذات يوم فما زال يلح حتى سمح له بأن يمتطي جوادا كما فعلا فإذا به بعد خطوات فوق عرفه يطوق عنقه بساقيه ويسمك بجبهته، فلما أعيد إلى

حيث كان لم يبد عليه شئ من الخوف وصمم على أن يطلق العنان لجواده وانطلق به يعدو وهو ثابت فوق صهوته ومن ذلك الوقت أصبح يجيد الركوب.

وفكر الغلام ذات يوم في أمر: لم لا يطير كما تفعل الطير؟ لم لا يضع ذلك موضع التجربة؟ إنه يرى أنه مستطيع بحركة ما أن يثب طائرا فيسبح في الجو كما تسبح الطير؛ وإن في نفسه منذ صغره لميلا إلى أن يضع ما يهجس في خاطره موضع الاختبار، ولسوف يكبر معه هذا الميل فيظهر في مواطن كثيرة؛ ويشد الغلام بيديه حول ركبتيه ثم يثب من نافذة يريد أن يطير ولكنه يصحو بعد ثمان عشرة ساعة قضاها في سبات عميق فيفتح عينيه دهشا متحيرا يحاول أن يذكر ماذا كان من أمر طيرانه فيذكره ما يحس من ألم من مفاصله وأضلاعه.

ولم يقتصر شذوذه على هذا الحادث، وأكثر ما كان من شذوذه ما كان يتصل باهتمامه بهيئته، ومن ذلك أنه حلق شعره ذات مرة بالموسى لعل في ذلك إصلاحاً لشكله ثم عاد فأطلق شعره حتى استطال، وعمد إلى المشط فجعل به ذلك الشعر في موضع خاص لعل في ذلك أيضاً ما يكسبه وجاهة وليظهره في هيئة المهموم المفكر على نحو ما يظهر بيرون. وعمد مرة أخرى إلى حاجبيه 17. 28 فانتزع شعرهما بملقط كي يشتد بعد ذلك نماؤه فيكسب ملامحه مظهرا عاطفيا شعريا، ولكنه لم يرجع من وراء هذا كله بطائل الأمر الذي نغص عنده العيش.

ولقد جاء في كتابه (عهد الطفولة) قوله (كنت اعلم حق العلم أني لم أك حسن المنظر، ولذلك كانت كل إشارة إلى هيئتي تسيء إلى إساءة مؤلمة، ولقد مرت بي لحظات تملكني فيها اليأس وخيل إلى أنه لا يمكن أن تتهيأ السعادة على هذه الأرض لمن كان له انف كانفي العريض وشفتان كشفتي الغليظتين وعينين كعيني الصغيرتين الشهباوين، وسألت الله أن يحدث معجزة فيجعلني وجيها فأني لأجود بكل ما هو لدي وبكل ما عسى أن اظفر به في المستقبل في سبيل وجه حسن).

وفي صيف 1839 شاهد الغلام في موسكو مشهدا استقر في نفسه فلم يبرحها حتى ظهر أثره في أحد أوصافه فيما بعد في قصته الكبرى (الحرب والسلم) إذ وصف موكبا من مواكب الاسكندر الأول على لسان روستوف أحد شخصيات تلك القصة، أما المشهد الذي رآه الغلام وجعله مثاله فيما كتب من وصف فهو موكب نيقولا الأول يوم زار موسكو ليضع الحجر الأول في بناء كنيسة أقيمت لتخليد ذكرى تحرير روسيا من غزو نابليون.

ولم يطل بالغلام المقام في موسكو فقد أعيد مع أخيه الصغير إلى يا سنايا بوليانا ليكونا في رعاية العمة تاتينا، وبقي الأخوان الكبيران في موسكو ترعاهما الكونتس اوستن سيكن عمتهما على الحقيقة؛ وكانت الكونتس اوستن أو عمتهما ألين امرأة تقية صالحة لله في السر والعلن وتنفق مالها في سبيل الله فلا ترد فقيرا ولا تتكره لذي حاجة، وكانت بالخدم رحيمة عطوفا تكره أن توقظهن إذا آوين إلي مضاجعهن فتعمل عملهن فينا تريد لنفسها من حاجة؛ وكان أثرها عميقا في نفس الغلام فكان يشعر نحوها من

الإجلال والإكبار بقدر ما كان يشعر نحو عمته تاتيانا من المحبة، ولئن علمته العمة تاتيانا كيف تكون بهجة النفس في الحب فقد أوحت إليه ألين كيف تسمو النفس وكيف تطيب بالدين.

ولكن هذه العمة قضت نحبها في خريف عام 1841 فصارت الوصاية على الاخوة جميعا لعمة أخرى هي السيدة يوشكوف زوجة أحد ذوي الثراء من الملاك في قازان، وثم فقد نقل الصبية جميعا إلى قازان فأقاموا هناك حتى ربيع 1847؛ على أنهم كانوا يقضون إجازاتهم الصيفية في ضيعتهم المحبوبة بناحية ياسنايا بوليانا.

فتى حائر

-5-

كان ليو في نحو الثالثة عشره من عمره حينما انتقل مع اخوته إلى قازان؛ وكان جدهم أحد حكام قازان من قبل فكان الصبية ملحوظي المكانة في مضطربهم الجديد وكان يصحب كل صبي منهم خادم خاص جيء به من بين عبيدهم في ساسنايا، وترفع الصبية عمن حولهم من الناس إلا من كانت لهم مثل مكانتهم ولذلك قلت خبرتهم بقازان وأهل قازان. . .

وكانت عمتهم يوشكافا التي يعيشون يومذاك في رعايتها طيبة القلب ولكنها لم تكن على قدر من الثقافة كبير، وكان زوجها من ذوي الثراء يجعل أكثر وقته للموسيقى ولعب الورق إليها؛ ولذلك كثيراً ما كان يغشى بيته جماعات من أصحابه وكثيراً ما صرف الصبية عن الجد من الأمور مشاهدتهم هذه الجماعات وأوحى إلى نفوسهم اللعب واللهو فكان لذلك سوء أثره في دروسهم.

ولكن ليو لا يسرف في ذلك إسراف اخوته، بل انه ليميل إلى مجافاتهم إلى حد ما منذ أن رآهم يتغيرون عما ألفهم، ورأى في أذواقهم وميولهم ما يحس أنه غريب عليه جديد عليهم وما لا يسمعه إلا أن ينكره منهم بينه وبين نفسه.

ولعله ما أنكر ذلك منهم إلا لأنه لا يستطيعه لنفسه، فقد عاوده ما يكدر نفسه من اهتمامه بهيئته وماذا عسى أن يكون وقعها في النفوس؛ وإنه ليطيل النظر في المرآة فلا تعجبه أذناه الكبيرتان ولا أنفه المفرطح الواسع المنخرين ولا عيناه الشهباوان الجاحظتان بعض الشيء ولا شفتاه الغليظتان بعض الغلظ.

على أن له في القراءة مصرفاً عن هذا، وعزاء ومتعة غير ما يسعى إليه اخوته من متعة؛ وهو اليوم في الرابعة عشرة من عمره يلتهم ما تصل إليه يده من الكتب التهاماً؛ ولن يزال مكباً على كتابه ساعات طويلة حتى لينسى نفسه، لأنه يعيش بخياله فيما قرأ؛ وكان مما قرأه يومئذ كتاب ألف ليلة وقد أثرت في خياله وحسه قصة (الأربعين لصاً) تأثيراً قوياً وكذلك فعلت قصة الأمير (قمر الزمان)؛ وقرأ الغلام شعر بوشكين وأعجب بقصيدته عن نابليون، وراقته قصة (الدجاجة السوداء) للكاتب الروسي بوجورولسكي؛ وقرأ الإنجيل وكم تأثر قلبه بقصة يوسف فإن أثرها فيه كان على حد قوله هائلا، ولم يزل بعد ذلك بسنين يصف ما أعجبه من وجازتها وبساطتها وصدقها، ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى أصبح مسحوراً بجان جاك روسو، وإنه من فرط تأثره به ليكاد ينسى كل شيء غيره، وقد بلغ افتتانه به أنه استبدل صورة له بما كان يضع فوق صدره من صليب، واقبل على اعترافاته وكتابيه (إميل) و (هلويز الجديدة) فقرأها مرة بعد مرهة، وكلما أعاد قراءتها ازداد حبه لها واشتد تأثره بها. قال بعد ذلك يصف هذا السحر (كانت صفحات كثيرة منه وثيقة الصلة بنفسي، حتى لقد خيل إلي أني أنا الذي كتبتها لا محالة).

ويمتلئ ذهن الفتى في السادسة عشرة بكثير من مسائل الفلسفة، بل إنه ليطمع أن يحل ألغاز هذا الوجود فيشغل نفسه بالنظر في خلود الروح ووظيفة الإنسان في هذا الكون وصلته به وإمكان وجود حياه أخرى إلى أمثالها من المعضلات والمسائل.

وينظر الفتى في نفسه فيصل إلى رأي، وذلك أن سعادة المرء لا تتوقف على العوامل الخارجية في ذاتها ولكن على صلة الإنسان بهذه العوامل، ومن ذلك مثلاً أن الإنسان إذا أخذ نفسه بالتقشف وتعود الآلام ألف شقاء العيش وآلامه فلن يشقى به ولن يألم منه وعلى ذلك فقد أخذ نفسه بألوان من العنف والشدة كأن يحمل بعض الكتب الثقيلة زمناً ويداه ممدودتان، وكان يضرب جسمه وقد تعرى بحبل حتى تدمع عيناه، ثم إنه يقنع نفسه بأن التفكير في الموت أمر لا محل له وللإنسان أن يستمتع بالساعة التي هو فيها فالموت أمر لابد منه والحياة أتفه من أن يعنى بها المرء قلبه، فليمرح الفتى ما وسعه المرح ولينصرف عن الدرس وليقبل على كل ما يلذه من طيبات الحياة خيرها وشرها وليقض وقته في قراءة القصص وأكل الحلوى. . .

ويحاول أن يتدسس إلى أعماق نفسه ليرى ماذا يجري في شعوره فيصل به الأمر إلى ما يقرب من الخبل، تجد ذلك في قوله (وكنت أفكر في أني أفكر فيما كنت فيه أفكر) وإنه ليستغرق في تفكيره هذا حتى ليأكل ما في يده ذات مره من ديدان كان أعدها طعماً للسمك أثناء صيده ثم يمج الديدان من فمه بين الضحك والتقزز.

ولا يلبث الفتى حتى يجد نفسه قد أخذه التشاؤم من جميع أقطاره، ثم يجد نفسه مستغرقاً في هذا التشاؤم استغراقاً، فلا فكاك له منه ولا منتدح عنه. تجد ذلك واضحاً في عبارة جاءت له في كتابه (عهد اليفاعة)، ولئن كان هذا الكتاب كسابقه (عهد الطفولة) وكلاحقه (عهد الشباب) لم يكتب على أنه تاريخ حياته فإن أكثر ما جاء فيه من وصف لشخصيات خلقها وأكثر ما جاء على ألسنه هذه الشخصيات يدر حول حياته ومن كان له بهم في هذه العهود صلة. قال (لم تشتد نزعة فلسفية في نفسي كما اشتدت نزعة التشاؤم، تلك النزعة التي أشرفت بي ذات مرة على حافة الخبل فقد تخيلت أنه ما من شيء أو شخص هو قائم في هذا الوجود بجانب شخصي؛ وأن الأشياء جميعاً ليست أشياء فقط، ولكنها صور فحسب لا تظهر إلا عندما أتجه بفكري إليها، وإنها لتختفي حين ينتهي تفكيري فيها؛ وقصارى القول أني وافقت شلنج فيما ذهب إليه من أن الأشياء لا وجود لها في ذاتها وإنما الموجود هو علاقتي بها؛ ومرت بي لحظات وصلت فيها تحت تأثير هذه الفكرة المتسلطة علي إلى حالة من الخبل حتى لألتفت في سرعة حولي كي أدرك اللا شيء. . . لقد ازدهتني هذه الكشوف الفلسفية التي بلغتها وأثارت غروري إلى حد عظيم، وكثيراً ما تخيلت أني رجل عظيم يكشف حقائق لخير بني الإنسان، وبهذا الشعور الذي انطوت عليه نفسي، شعور الكبرياء نظرت إلى باقي البشر، ولكني ما واجهت أحداً من هؤلاء الفانين إلا أحسست بالخجل حياله، الأمر الذي يحمل على كثير من العجب، وكلما رفعت قدري نفسي شعرت أني أقل مقدرة لا على إظهار ما يخالجني من

شعور الرفعة فحسب، بل كذلك على أن أعود نفسي أن أتجنب الخجل الذي يعتريني من أبسط كلماتي وحركاتي).

وتتوزع فؤاده هواجس الشباب وأحلامه، فبينما هو مستغرق في تشاؤمه مسرف فيه، إذا به يميل بغتة إلى التفاؤل فيجمع عزمه على أن يجد في تحصيل دروسه وأن يكون خير مثال للطالب المجتهد، ويذهب به التفاؤل إلى حد أن يعتزم العمل على أن يكون موضع إعجاب كل من يراه من الناس فإن لم يتفق له هذا في نواحي الكفاية والبطولة، فليس ذلك بمانعه أن يبلغ مأربه في أن يصبح أغنى بني الدنيا وأشهرهم مكانة.

ولكنه لا تكاد تنقضي أيام على ما عقد عليه العزم حتى يعود إلى تشاؤمه والى بطالته ولهوه، ثم إنه يطلق العنان لرغبات جسده، وهو فتى قوي البدن متدفق الحيوية يكاد يلتهب مم يخالجه من رغبات هذا البدن على الرغم من إسرافه فيما يطفئ به هذا الظمأ المتصل به؛ وما يزال به شيطانه يغريه ويزين له كثيراً من الإثم، ويسوقه إلى مهاوي الفتنة حتى يوقع في حبائله فتاة من الخدم ذات ملاحة فيغويها ويقضى منها وطره! ويبلغ نبأ هذا الإثم عمته فتطرد الفتاه من البيت إلى حيث تتلقاها مهاوي الرذيلة ثم يطويها الموت قبل أوانه على صورة محزنة نكراء. . .

وما يعنينا هذا الفعل إلا لأنه استقر في أعماق وجدانه. فكان منه حين تجاوز السبعين من عمره صورة فذة لأهم شخصية في قصة تعد من أعظم آثاره الفنية وأخلدها ألا وهي قصة (البعث).

ويضطرب الفتى اضطراباً شديداً بين وساوس الشباب، فما يكاد يخالجه الندم على ما يعده تفريطاً منه في جنب الفضيلة، حتى يستسلم ثانية إلى الرذيلة، ثم يعود فيجمع عزمه على الورع والطهر والعفة وعلى أن يأخذ نفسه بالجد من الأمور، ولكنه لا يلبث حتى ينقاد إلى ما يوسوس له به شيطانه.

وهكذا ما يزال الفتى يتعلق بالكمال مرة، وينحدر حتى يقرب من قرارة الانحطاط مرة، ويرضى عن نفسه حيناً ويجثم على صدره الندم حيناً، دون أن يستقر على وضع أو يركن إلى رأي. . .

وللمرء أن يعجب حقاً من أن تشغل الفتى مثل هاتيك الأمور في سن كسنه يومئذ؛ ولقد كان بعد ذلك بسنين يشعر بما عسى أن تثير من عجب، بل إنه كان يخشى ألا يصدقها المرء أو أن يردها إلى المبالغة في القول كما ذكر ذلك في كتابه (عهد اليفاعة). فما كان التفكير المتصل في الحياة والناس، وما كانت الرغبة في بلوغ الكمال وتلمس السبيل إلى تحقيق تلك الرغبة مما يكافئ تلك السن، ولولا ذلك الوضع الذي كان فيه وهو حدث لم يلتحق بعد بجامعة من الجامعات، وحسب أنداده أن يقرأ الفتى منهم قصة أو يلهو بديوان شعر. . .

ولكنه كان فيما يشبه الحمى يومئذ مما يجول في رأسه من أفكار وما يهجس في نفسه من خواطر، وما يلج تلك النفس الحائرة من رغبة في السمو ومن طموح نحو المثل الأعلى، وإن تولستوي الفتى اليوم لهو صورة مصغرة لتولستوي الكاتب العظيم في غد، يوم يشتغل ذهنه الجبار بالفن وبالدين وبمسائل الاجتماع،

ويوم يبحث حائراً قانطاً أول الأمر عن الغرض من هذه الحياة، حتى تنزل الكنيسة عليه إذ يرى أن الغرض من الحياة يتلخص في العمل على السمو بها نحو ما يريد الله من كمال.

وإن تحمسه للمعرفة على هذه الصورة واهتمامه بان يبلغ ما يطمح إليه من رفعة لدليل لا يدع مجالاً للريب على أنه فطر على البحث عن الحقيقة وأنه من العباقرة القلائل الذين تفطن بهم الإنسانية إلى سر وجودها، والذين يأتون إلى العالم على فترات من الزمن ليقيموا الدليل بوجودهم في ذاته على أن حياة الإنسان جديرة بأن يحياها الإنسان.

وإنك لتجد مثالا لما كان يعنى به نفسه يومئذ فيما جاء بكتابه (عهد اليفاعة) قال:

(كنت يومئذ في نحو السادسة عشرة، وكان العرفاء لا يزالون يترددون علي، وكنت أتهيأ في فتور وكره لألتحق بالجامعة. . . وفي ذلك الوقت الذي أعده نهاية اليفاعة وبدء الشباب، كانت تقوم أحلامي على مشاعر أربعة: أولها حبي (لها) تلك المرأة الخيالية التي كنت أحلم بها دائماً على وتيرة واحدة والتي كنت أتوقع أن ألقاها في أية لحظة في أي مكان ما؛ وثانيها محبتي في أن أغدو محبوباً، فقد رغبت في أن يعرفني كافة الناس وأن يحبوني، ورغبت في أن أصرح باسمي فأجد من الناس جميعاً ما يدل على اهتمامهم بما أصرح به وأراهم يحيطون بي فيسمعوني شكرهم إياي على أمر ما؛ وثالثهما أملي في حظ عظيم غير عادي، وقد بلغ من تسلط هذا الأمل علي أن أشرف بي على الجنون، ورابع مشاعري وهو أهمها كان إحساسي باشمئزازي من نفسي واستشعاري الندم، ولكنه كان ندماً ممتزجاً بالأمل في السعادة ولذلك لم يخالطه الحزن. . . ولقد أحسست السرور في نفوري من الماضي وحاولت أن أجعله أكثر اسواداً مما كان عليه في واقع الأمر. وذلك أنه كلما كانت ذكرياتي عن الماضي أكثر سواداً، ظهر لي الحاضر الناصع الواضح أكثر وضاءة ووضوحاً، وتراءت لقلبي أحلام المستقبل أكثر جمالا وبهجة، ولقد كان ذلك الصوت المنبعث في نفسي صوت الندم والرغبة القوية الحادة في بلوغ الكمال هو الإحساس الرئيسي لروحي في تلك الحقبة من نموي، وكان هو الذي رسم لي أساس نظراتي في نفسي وفي البشرية وفيما خلق الله من كون).

وكان له يومئذ صديق في قازان، كان فتى طويل القامة، عريض المنكبين حسن الهيئة، في وجهه ملاحة ورقة، يبتسم عن أسنان جميلة دقيقة، ويزين رأسه شعر مسبل ناعم، ولكنه كان على الرغم من ذلك خجولاً كصاحبه إذا لقي الناس، بل لعله كان أشد منه خجلاً وأكثر حساسية. . .

وقد حبب هذا الفتى إلى تولستوي إخلاصه لما يعتقد من رأي وتحمسه له وصراحته في التعبير عما في نفسه مهما يكن من أمره، وقد سأل ديا كوف ذات مرة – وهذا هو اسمه – صاحبه تولستوي قائلا أتدري لماذا أحبك أكثر مما أحب غيرك؟ ذلك لأنك صريح لا تكتم شيئا في نفسك، وهكذا يجتمع الفتيان على الصراحة فتربط بينهما، وإنهما ليتقاربان في كثير من ميولهما، ويتضح لهما ذلك فيما يديرانه بينهما من حوار في أمور كثيرة، فيما يتصل بالدين وفيما يتصل بالمجتمع وأركانه من حكومة وتعليم ونظم مالية وما إليها.

ولقد كان هذا الفتى شديد التأثير في حياة صاحبه فما فرغ من محاورته مرة إلا قويت في نفسه الرغبة في العمل على الكمال المنشود، والانطلاق من حياه اللهو والعبث، تلك الحياة التي يذهب فيها العمر سدى، ولئن لم يك لتولستوي ما لصاحبه من حسن الهيئة فليس ذلك بمانعه أن يعمل على كسب ما يحمل الناس على الإعجاب به مما هو أهم وأجدى من المنظر وحسن الطلعة، بل إنه لحافزه إلى ذلك العمل الذي يعقد عليه عزمه.

على أنه عزم كأكثر مما يعتزم الشباب فما يلبث أن يذهب فيما تحيطه به الحياة من مسراتها ومغرياتها، ولكم اضطرب تولستوي بين عزمه وبين لهوه، ولكم جدد العزم ثم تحلل من عزمه.

وكان ديا كوف هو شخصية ديمتري في كتابه (عهد اليفاعة) فما يفوت كاتب الغد أن يصور أشخاصه كما رآهم في مضطرب الحياة، ولن ينسى شيئاً مما رأى أو يسهو عن أمر يتصل بما يقوم في رأسه من فكرة مهما بلغ من ضآلة هذا الأمر، وتلك ناحية من أهم نواحي مقدرته الفنية يوم يغدو أعظم من كتب القصة في أدب قومه وأحد أفذاذها القلائل في أدب أوربا كلها. .

وستمضي الأعوام ويبقى أثر ديا كوف في نفسه، فقد كان مما أوحته إليه صحبته عبادة الفضيلة، وأن غاية الإنسان في الحياة العمل على بلوغ الكمال والسمو بالنفس أبداً، وسوف يظهر أثر ديا كوف في قصة الحرب والسلم فيما جاء على لسان (أندري) أحد شخصيات القصة قبل معركة أوسترلتز إذ يقول (إني أرغب في المجد، أرغب أن أكون معروفاً عند الناس وأن يحبني الناس، ومالي رغبة غير هذه، وما أعيش إلا من أجلها. . . وإني وإن كان ذلك مني أمراً مروعاً غير طبيعي لأضحى حتى بأعز الناس عندي في سبيل لحظة من المجد والفوز على الرجال ومحبة من لا أعرفهم من الناس ومن سوف لا أعرفهم أبداً

طالب فاشل

-6-

لما بلغ ليو السادسة عشرة من عمره أراد أن يلتحق بجامعة قازان، واختار قسم اللغات الشرقية إذ كانت بغيته أن يكون في غده من رجال السياسة؛ وكان لا بد لمن يلتحق بهذا القسم أن يجتاز امتحان اللغات العربية والتتارية والتركية، مضافا إليها بعض اللغات الغربية وبعض فروع المعرفة العامة، ونجح الفتى في بعض مواد هذا الامتحان وأخفق في بعض؛ وقد حصل في اللغة الفرنسية على أعلى درجة، وتفوق في الألمانية والعربية والتركية، وكان أقل من ذلك جودة في المنطق والرياضة واللغة والإنجليزية والأدب الروسي؛ أما التاريخ والجغرافيا فقد كان نصيبه فيهما الرسوب إلى حد بعيد، وقد ذكر عن نفسه أنه سئل أن يعدد المواني الفرنسية فما استطاع أن يذكر منها واحدة؛ ثم أعيد امتحانه بعد أشهر فيما رسب فيه فنجح وقبلته الجامعة منتسباً. . .

وجلس بين صفوف الطلاب، منصرفاً أكثر وقته عما يقول الأساتذة، يقلب عينيه في أقرانه حيناً فيعجبه منظر هذا وتضحكه هيئة ذاك؛ وينظر إلى الأستاذ حينا فيسخر مما يقول أو يرسم صورة هزلية؛ ثم ينشغل عما حوله حينا كأنما أخذته عن نفسه فما يفيق إلا على نهوض الطلاب ينطلقون من درسهم، فيسرع في انطلاقه منه لأنه ضائق به صدره. . .

وكيف يجعل الفتى للدرس باله وإنه لفي شغل تارة بما يطوف برأسه من أحلام الشباب وأوهامه، وآونة بما يهبط على خاطره من أفكار منها ما يتصل بالدين ومنها ما يتصل بالحياة. . .

أما عن الشباب وأحلامه فقد كان له في قازان مجال أي مجال للهو واللعب، وألفى الفتى نفسه وقد أخذ حب اللهو عليه كل مذاهبه وطالعته مفاتن الحياة ومسراتها من جميع أقطاره، وهو فتى متوثب الشباب تعتلج في نفسه عواطف شتى من الحب والطموح والشهوة وكل ما هو بسبيل من هذا؛ ولذلك ألقى بنفسه في متع الحياة صالحها وفاسدها وأرخى العنان لشهواته ونزواته، حتى لينسى في تلك المسرات كل ما عني به نفسه من قبل من رغبة في الكمال. . .

والكمال عنده يوم ذاك أن يلبس أحسن الثياب وأجملها وأن يفتن في اختيار الألوان حتى يحمل الناس على الإعجاب بذوقه، ولعل عدم رضائه عن خلقته قد أدى به إلى كثير من الإسراف في هذا السبيل؛ ثم إنه يلعب الورق ويشرب الخمر في جماعات من لذاته؛ ويدخن الطباق في غليون جميل يحرص أن يكون ثمنه أغلى ثمن، ويتطيب ويمشط شعره ويدهنه بما يكسبه اللمعان، ويتكلم الفرنسية في أناقة متكلفة؛ وإنه ليشهد كل حفلة يقيمها أرستقراط المدينة وذلك بدعوة من أصحابها فما يفوت أحداً أن يدعوه وقد أمسى شخصية من شخصيات المجتمع، وإنه ليبذل قصارى جهده أن يلفت الأنظار إليه، ولكم يبهجه أن يتحقق له ما يريد وبخاصة إذا ظفر بنظرات الأوانس، ولكم يؤلمه ويكدر عليه عيشه أن يصادف من أحد عدم

الاكتراث لـه أو الفتور في تحيته؛ وإنه ليندس بين كل جماعة فيتحدث ويعرض آراءه ويخالف ويعارض ليبرهن على أصالته وقوة شخصيته.

وإنه ليغشى دور اللهو جميعاً، فيتكلف أكثر ما يستطيع من مظهر أرستقراطي في حديثه وتحياته ومشيته وجلسته؛ ويدلي بآرائه فيما يشهد من تمثيل أو يسمع من موسيقى، ويأخذ بقسط من الرقص، وإن كان لا يحسنه كما يجب أن يحسنه.

وإنه ليحسب أكثر من مرة أنه نضو حب، فيخيل إليه تارة أنه أسير هوى لشقيقة صاحبه دياكوف، وتحدثه نفسه أنها خير ما يختار من زوجة؛ ثم إذا به يتجه بخياله وقلبه إلى صديقة لأخته ماري إذ يراها وهي طالبة في معهد عال تجمع إلى جمال الخلقة حسن الخلق وسعة الثقافة؛ ولكنه لا يلبث أن يرى نفسه وقد علق قلبه بفتاة تزوجت حديثاً، ولكنه يؤثر أن يموت بين يديها على أن يكاشفها بما يحس نحوها من حب. . . ولن تزال أحلام الحب تطوف بقلبه شأنه في ذلك شأن غيره من الشباب، ولا تزال الرغبة في الزواج تلح على نفسه وتوحي إليه كثيراً من الأماني العذاب، ولكنه لا يستقر على رأي، وقصاراه أن يحلم بمن يتوق إلى أن يحبها لتكون له زوجاً تجمع بين صدق العاطفة ورجاحة العقل وتحس نحوه مثلما يحسه نحوها وتفهمه كما يفهمها، وأنى له أن يظفر بهذه الزوجة التي لا يجدها إلا فيما يحلم من حلم؟

ولم يقتصر الفتى على الأحلام، فقد كان طلب نساء يسعى إليهن ويسعين إليه ولا يتورع أن يتسلل إلى بيوت يتهامس الناس بأسمائها ويتغامزون بها؛ ولن تخرج المرأة في رأيه عن إحدى اثنتين، فإما واحدة يلهو بها ويطفئ بها لهيب جسده، وإما ثانية يحلم بين يديها أحلام الزواج والعفة ولا يستطيع خياله أن يتجه لحظة أمامها إلى معنى من معاني السوء، ومن عجيب أمره أنه على تنبله بالثياب والمال وعلى حيويته وقوة بدنه كان خجولا شديد الاضطراب إذا وجد نفسه في مجلس أونس أو سيدات مهما بلغت ألفته لهن، أو إذا تحدث إلى فتاة أو سيدة فما يزول عنه خجله أو يبارحه اضطرابه إلا بعد حين.

ومن كان يحيا حياة كهذه مطلق العنان مسرفا في اللهو كان حقيقة أن يفشل في طلب العلم؛ ولذلك فشل تولستوي فشلا كبيراً، على أنه يحاول أن يبرئ نفسه فيرد سبب إخفاقه إلى اضطغان أستاذ التاريخ الروسي عليه، ويزعم أنه كان حسن الإلمام بهذه المادة، كما يعلم أن هذا الأستاذ أسقطه كذلك في اللغة الألمانية على الرغم من أنه يجيدها أكثر من أي طالب آخر في قسمه بما لا تجوز معه المقارنة.

وترك تولستوي كلية اللغات الشرقية إلى كلية القانون، ولكنه في عامه الثاني بالجامعة لم يك أحسن حالا منه في عامه الأول، فقد ظل مسرفا في لهوه لا يقف فيه عند حد، يسهر أكثر لياليه حتى يسفر الصبح في مجونه وفتونه، ولبث على هذه الحال حتى انتصف العام الدراسي أو جاوز المنتصف.

وكان في الجامعة يتنبل بماله وثيابه، ويصل إليها على جواد جميل وحوله بعض الخدم، ولا يجالس أو يصاحب إلا من يراه في مثل طبقته، ويترفع على من يراه دونه، ولذلك كان بغيضاً إلى هؤلاء ثقيلا عندهم، قال أحدهم يصف شعوره نحوه (لقد كنت أبتعد عن الكونت، ذلك الذي نفرني من أول الأمر تظاهره بالجفاء كما نفرني شعره القصير الخشن وما ينبعث من عينيه نصف المقفولتين من نعنى يخز النفس، وإني لم ألق

قط شاباً مثل ما لهذا الشاب من ذهاب بالنفس ورضاء عنها، الأمر الذي يعد غريباً كما أنه لا يفهم؛ وقلما كنت أقابل الكونت أول الأمر، ذلك الذي على الرغم من قميء منظره وخجله قد اتخذ له رفقة ممن يدعون الأرستقراط؛ وقلما عني بأن يرد تحيتي كأنما يريد أن يشير بذلك إلى أننا أبعد من أن نتساوى حتى في هذا المكان حيث أنه يأتي إليه في عربة أو على ظهر جواد وآتي أنا راجلا) وذكر هذا الزميل مرة أخرى أنه تصادف أن حبس في حجرة في الكلية هو وتولستوي بعض الوقت عقابا لهما على تقصير، فرأى تولستوي في يده كتاب تاريخ، فقال إن التاريخ في رأيه أتفه موضوع، فما هو إلا مجموعة من الخرافات والتفاصيل العديمة الجدوى تتخللها طائفة من الأرقام وأسماء الأعلام؛ وتطرق الحديث إلى الشعر فتهكم تولستوي وسخر من الشعر؛ ثم تحدث عن التعليم الجامعي بوجه عام فسخر منه ما وسعته السخرية وسخر من تسمية الجامعة دير العلم إلى أن قال (ويحق لنا أن نتوقع أننا نترك هذا الدير رجلين نافعين مزودين بالمعرفة، لكن ماذا عسى أن نحمله معنا من الجامعة حقاً، وأي شيء نصلح له ولمن من الناس نكون ضرورين؟

هذا هو رأي زميله عنه، ولكن الذين عرفوا تولستوي وقد نسي تكلفه يجدونه شخصاً غير هذا، فهو ذكي الفؤاد محبب العشرة إلى رفقائه، طيب القلب، واسع الأفق متوثب الروح، صادق الحماسة لما يعتقد أنه حق أو صواب.

وهو في أثناء إجازته الصيفية في ياسنايا، ينسى ما كان منه في المدينة من تكلف يبعد به عن طبيعته، ولو أن أحداً من خلانه وآه هناك لأخذه العجب من أن يكون هذه هو الطالب الأرستقراطي الذي عرفه في الجامعة؛ فهو هنا في القرية يستحم في النهر ويجلس تحت شجرة يطالع قصة فرنسية، ويصيد السمك أو الطير ويمشي في الغابة ما وسعه المشي وقد أطلق نفسه على سجيتها، فلا أناقة في ملبس ولا تكلف في مشية أو جلسة أو حديث؛ وإنه لينام في شرفة ويأكل حيث يحب ويلبس ما يلائم لبسه الحر فحسب؛ حتى إذا عاد إلى المدينة رجع إلى تكلفه وأرستقراطيته.

ونجده يعد إسرافه في لهوه يثوب بعد منتصف العام الدراسي الثاني إلى شيء من الجد؛ ويجد لذة في دراسة القانون المقارن والقانون الجنائي وعقوبة الإعدام، ويقبل على القراءة إقبالا شديداً حتى ليتجاوز المقرر كثيراً في هذه الموضوعات، ويأنس منه أستاذه هذا الإقبال فيكلفه أن يقارن بين كتاب منتسكيو (روح القوانين) وبين قانون كاترين الثانية، فيجد الفتى في هذه المقارنة متعة عظيمة حتى ليميل إلى ترك الجامعة كي يستطيع أن يقرأ ما يحب أن يقرأ في غير قيد بما يتطلب المنهاج، فإنه إذا أقبل على قراءة شيء أحبه لا يحب أن ينصرف عنه إلى غيره حتى يستوعبه ويستوفي منه ما يريد. ويخرج الفتى من مقارنته بين الكتابين بأن كاترين في كتابها قد خلطت آراء منتسكيو الحرة باستبدادها وغرورها، وأن هذا الكتاب قد أجدى على كاترين من الصيت أكثر مما أجدى على روسيا من الخير.

وفي شهر مارس من سنة 1847 يصيبه المرض ويلح على بدنه القوي فيحمل إلى مستشفى يقضي به أياماً؛ وهناك يبدأ الفتى كتابة يومياته فتكون هذه اليوميات من أهم مصادر تاريخ حياته، فلقد دأب على كتابتها أكثر أيام عمره؛ ولم ينقطع عنها إلا بضع سنين ثم عاد إليها.

وكانت أول صفحة منها بتاريخ اليوم السابع عشر من ذلك الشهر ومما جاء فيها قوله: (ليس يصحبني خادم هنا ولا يساعدني أحد، وعلى ذلك فلن يؤثر مؤثر خارجي في ذاكرتي أو حكمي على الأشياء، ويجب تبعاً لذلك أن يزداد نشاطي العقلي. . . وإن أهم ما كسبته من ذلك هو أن أرى في وضوح أن تلك الحياة المضطربة التي يعزوها الناس عرفا إلى الشباب إنما مردها في الحق إلى فساد روحي مبكر؛ إن من يعيش في جماعة يجد في العزلة من الفائدة له مثلما يجده منها في الجماعة من كان يعيش في عزلة؛ وما على المرء إلا أن ينسحب من الجماعة وينطوي على نفسه ليرى كيف يطرح عقله ذلك المنظار الذي كان يرى خلاله كل شيء حتى ذلك الوقت في ضوء مهوش. . . ولأن يكتب المرء عشرة مجلدات في الفلسفة أهون عليه من أن يحقق فكرة واحدة تحقيقاً عملياً).

وفي منتصف أبريل من تلك السنة كتب في يومياته يقول: (لقد فشلت منذ قريب في أن أجعل سلوكي كما أريد، وكان مرد ذلك بادئ الرأي إلى أنني تركت المستشفى، ثم بعد ذلك إلى من أجدني أعود إلى مخالطتهم من رفقة يوماً بعد يوم؛ وأختتم ذلك بأنه ينبغي أن يقودني تغيير المكان إلى أن أفكر في جد كيف تؤثر فيَّ الظروف الخارجية كلما تجددت الشروط والأوضاع).

ويتفكر في مستقبله فيعاوده ما كان يطمح إليه من كمال على الرغم مما أسرف فيه من عبث ولهو فيقول: (إني أجدني دائماً بحيث يطالعني هذا السؤال: ما الغرض من حياة الإنسان؟ وبغض النظر عما بلغته بطول تفكيري من نتائج وعما أعده في رأيي منبع الحياة؛ فإني ما أزال أصل إلى خاتمة لا تتغير ومؤداها أن الغرض من الوجود الإنساني إنما هو أن نبذل أكبر عون نستطيعه في سبيل أن يرقى كل شيء حي رقياً عالمياً عاماً؛ وإني لو لم أجد غرضاً لحياتي لكنت أشقى بني الفناء على أن يكون غرضاً نافعاً عاماً. . وعلى ذلك فيجب أن تكون حياتي اليوم كفاحاً دائباً نشطاً في سبيل تحقيق هذا الغرض الذي ليس لي غرض سواه).

ويعود الفتى إلى اعتزامه وما يقطعه إلى نفسه من مواثيق فيذكر ما سوف يأخذ به نفسه من ألوان الجد في عاميه القادمين بالقرية، فسيدرس القانون كله ليتهيأ للامتحان النهائي للجامعة وسيدرس الطب العملي وقسطاً من ناحيته النظرية واللغات الفرنسية والروسية والألمانية والإنجليزية والطليانية واللاتينية، والزراعة النظرية والعملية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والعلوم الطبيعية، وسيدون ما يعن له من ملاحظات وسيبلغ الكمال في الفن والموسيقى، وسيكتب المقالات في شتى المواضيع التي يدرسها إلى غير ذلك من ألوان الجد والدأب. . .

ثم إنه يقطع على نفسه عهداً أن ينجز ما جمع عزمه عليه مهما تكن العقبات وأن ينجزه على خير وجه وألا يرجع إلى الكتب فيما نسي من أمر بل يعمل على أن يسترده من ذاكرته؛ وأن يحرص على أن

يبذل عقله أقصى ما في وسعه من طاقة وأن يجهر بقراءته وتفكيره، وألا يخجل من أن يصارح من يقطعون عليه عمله بأنهم يعوقونه عنه؛ وليدعهم أول الأمر يشعرون بذلك فإن لم يفهموا فليصارحهم به في شيء من الاعتذار.

وحق للمرء أن يعجب من هذا الذي يعتزمه الفتى بعد ما كان من لعبه وبطالته، ولعل إسرافه على نفسه هو الذي يوحي إليه بما عسى أن ينسيه ذلك العبث ويعوضه عما فاته من جد؛ وفيم العجب وتلك حال من حالات الشباب، والشباب يتخيل أنه قادر على كل شيء فلننظر ماذا أنجز الفتى من هذا الذي جمع العزم عليه.

لم يلبث الفتى أن ترك الجامعة دون أن يحصل على شهادة ما؛ ففي سنة 1846 خرج أخوه نيقولا من الجامعة والتحق بالجيش، وعاش ليو مع أخويه الباقيين في بيت استأجروه وقد تركوا بيت عمتهم فلا رقيب عليهم؛ وبعد أشهر قليلة قسمت ثروة أبيهم بينهم فكانت ياسنايا بوليانا من نصيب ليو، مضافاً إليها أربع ضياع أخرى تبلغ أربعمائة وخمسة آلاف من الأفدنة، كما كان من نصيبه نحو خمسين وثلثمائة من الفلاحين الذكور ومن ورائهم أسرهم؛ وفي يناير سنة 1846 يحس ليو بكثير من الضيق بعد أن بارح أخوه الجامعة كما يسأم حياة المدينة وملاهيها وغرورها، وحياة الجامعة وقيودها والامتحانات وسخفها، فيكتب إلى إدارة الجامعة لتستبعد اسمه من سجلاتها معتذراً بسوء صحته وبأمور تتصل بمطالب أسرته؛ ونطلق من الجامعة إلى غير عودة، فهل هو فاعل في غده ما تخيله في قازان من ضروب الجد؟

بين الجد واللهو

-7-

ودع تولستوي قازان وفي نفسه أنه ودع اللهو والعبث فما إليهما من عودة، وبلغ ياسنايا تلك الضيعة المحبوبة وقد زاده محبة لها إنها غدت من نصيبه، وإن ليشعر أنه أصبح مسؤولاً عنها وعمن يعيش فيها من الناس؛ ولقد زاد هذا الشعور لا ريب في نفسه العزم أن يطلق حياة اللعب والعبث. . .

ثم إن فكرة تسيطر على لبه اليوم وتملأ جوانب نفسه، ومؤداها أن يعمل في جد على إصلاح حال الفلاحين في الضيعة وما جاورها، فما يليق به أن يذرهم فيما هم فيه من جهل وبؤس.

وتستمع إليه العمة تاتيانا دهشة مبتسمة فما يخرج الأمر عندها عن أن يكون نزعة جديدة من نزعات الشباب؛ ولكنه يعود كل يوم إلى هذا الحديث وإنه لأقوى عزماً وأكثر جداً؛ وإن تفكيره في هذا الأمر ليصرفه عن القراءة وعن الموسيقى التي أحبها حباً عميقاً خبرته عمته؛ وإنها لتجلس إلى البيان تحاول أن تمتعه بلحن مما يجب فما يروعها إلا انصرافه عنها وعن لحنها ليقبل على حديث إصلاح الفلاحين. . .

وتعجبت عمته ويزداد عجبها إذ تراه يتخذ لنفسه زياً خاصاً به يعتزم أن يلبسه في كل وقت وفي كل مكان لأنه يظهره في مظهر الفيلسوف؛ ولكن الفتى لا يلبث حتى يخلع هذا الرداء ويلقي به لأن أحد الزائرين لم يتمالك نفسه ذات مرة من الضحك من مظهره، كره الفتى أن يكون موضع استهزاء، وهو الذي طالما تأنق وتنبل بالثياب. . .

وما الذي ألقى في قلب الفتى هذه الرغبة القوية في إصلاح حال الفلاحين؟ أهي مجرد نزعة من نزعات الشباب حقاً؟ أم هي خيال ألقاه في نفسه قراءة قصة حديثة تسمى (القرية) ألفها قصصي يدعى جريجوروفتش وصور فيها حياة الفلاحين، صورة مؤلمة تبعث في النفوس شعور الرثاء لحالهم؟ أم أن مرد ذلك إلى عاطفة عرف بها منذ طفولته وهي أنه يحب أن يرى الناس جميعاً حوله سعداء؟ الحق أن الفتى ما كان ليستطيع أن يرى مظاهر البؤس من حوله ثم لا يتحرك لها قلبه الإنساني الرحيم، وكيف كان يطيق أن يسمع فيما سمع أن امرأة نحبها من الجهد، وأن المرض فتك بالناس فلا يستطيعون له دفعاً؛ وكيف كان يطيق أن يرى بعض الفلاحين يخرون على قدميه سجداً يسألونه القوت؛ لقد كان ذلك يؤلمه أشد الألم أو كما يقول (إن ذلك كان يؤلمني كما تؤلمني ذكرى جريمة ارتكبت لو يكفر عنها).

على أنه يعجب أشد العجب من إعراض الفلاحين عن إصلاحاته؛ وبألم إذ يرى في وجوههم الشك والإنكار والعناد، وإذ يسمع أنهم يصفون ما بنى لهم من أكواخ جديدة بأنها سجون وأنهم يرمون بالمدارس التي افتتحها لأبنائهم والتي كان يعلمهم فيها بنفسه أحياناً، فعندهم إن هذه المدارس تحرمهم من معاونة أبنائهم إياهم في أعمال الزراعة؛ ويقلب تولستوي كفيه حائراً من أمرهم، وفي نفسه شعور الغضب ومرارة الخيبة. . .

ولا يلبث اليأس أن يصرفه عما شرع فيه، فينصرف عنه مكرهاً لأنه كان شديد التعلق به، يدلنا على ذلك ما جاء في قصة كتبها بعد سنوات قليلة، هي القصة المسماة (صباح أحد الملوك) فقد صور فيها أميراً يحلم بأن يعلم الفلاحين ويسعدهم ويوفر لهم أقواتهم، ويصلح رذائلهم التي تنجم من الجهل والتعلق بالخرافات ويجعلهم يحبون الهدى والحق؛ وفي هذه القصة يترك الأمير الجامعة ليعود إلى القرية ويكتب إلى عمته برغبته في إصلاح حال الفلاحين في ضياعه قائلاً بعد أن يصف مبلغ بؤسهم: (أليس واجبي الواضح المقدس أن أعني بحال هذه الأنفس السبعمائة التي سوف يسألني الله عنها حساباً؛ ثم أليس من الإجرام أن أجري وراء أنماط من اللهو والطمع بينما أدعهم لمشايخ أو رؤساءهم عليهم خشن غلاظ؟ ولم أبحث في نواحي أخرى عما عسى أن يظهرني بمظهر الرجل النافع الخير في حين أن أمامي هذا الواجب الوضئ النبيل الذي أعرفه عن وثوق وخبرة؟).

ولم يكن يدور بخلده أن يجد من الفلاحين هذا الجمود، فما أشد ما كره ما كان فيه من جد وما أسرع ما أقبل على لهوه وعبثه، وقد نما إليه أن أخاه سيرجى يعيش مع غجرية مغنية عيشة مطلقة من كل قيد في ضيعته؛ فحبب إليه عبث أخيه أن يعود هو كذلك إلى عبثه، فأقبل على المجون واللعب وأسرف في ذلك إسرافاً شديداً وبخاصة في مخالطة النساء مخالطة لا تأثم منها ولا تورع فيها حتى لقد أحدثت أثرها في بدنه القوي أو كادت، وحتى لقد عاد الفتى إلى سالف ندمه فانه يكتب في يومياته في منتصف شهر يونيو سنة 1847 يقول (ما أصعب على من يقع تحت تأثير الشر أو يزيد ما تنطوي عليه نفسه من خير. . . هل أبلغ بعد الأمد الذي أجدني فيه مستقلاً عن المؤثرات الخارجية؟ إن ذلك معناه في رأيي الوصول إلى كمال عظيم، حيث إنه في حال الرجل الذي يتخلص من العوامل الخارجية تسيطر الروح على الجانب المادي منه بالضرورة فيبلغ ما يريد؛ وسأضع اليوم لنفسي قاعدة جديدة وهي أن الاجتماع بالنساء إن هو إلا شر من شرور المجتمع لابد منه، وعلى المرء أن يتجنبه ما استطاع؛ وممن نتعلم في الواقع الشهوة والخنوثة والتفاهية في كل شيء إن لم نتعلمه من النساء؟ وعلى من تقع تبعة فقداننا تلك المشاعر الغريزية فينا كالشجاعة والمناعة والبأس والتصبر والعدالة إن لم تقع على المرأة؟ إن المرأة أشد استجابة من الرجل للمؤثرات، وكانت في عصور الفضيلة خيراً منا، ولكنها الآن في عصر الفساد والرذيلة قد باتت أسوأ منا وأرذل).

وتلمح إليه العمة تاتيانا ذات يوم بقولها (إنه لا شيء يكون الشاب خيراً مما يكون ارتباطه بفتاة ذات خلق)؛ ولكن توثب حيويته وعرامة فتوته وحبه الاستقلال، كل أولئك يميل به عن أن يركن إلى ما تقول. . .

وسيكبر هذا الفتى وقد ذاق حلو الحياة ومرها فيكون له من ذلك مادة لفنه وسيفيد من لهوه هذا كما يفيد من جده، فما ينسى شيئاً مما تطالعها به الحياة، وسوف نرى نظرته هذه إلى المرأة سنة 1847 وهو في التاسعة عشرة، تتجدد في قصة يكتبها سنة 1889 وهو في الحادية والستين، وهي قصة كروتنزرسناتا.

لم يعد للفتى أمل في إصلاح فلاحيه وأحسن أنه يقضي أيامه في باسنايا عبثاً فصمم على الرحيل منها، وفي شهر أكتوبر سنة 1848 سافر إلى موسكو حيث قضى ثلاثة أشهر أو أربعة طلق العنان لا يلويه عن العبث واللهو شيء، وله من فراغه وشبابه وماله ما يزيد جموحه ويمد في حبال غوايته؛ ثم سافر الفتى إلى بطرسبرج فدخل جامعتها ليدرس القانون ثانية وليحصل على درجة علمية تهيئه للالتحاق بوظيفة من الوظائف المدنية.

وأقبل الفتى على الدراسة في جد وعزم كأن لم يعرف اللعب يوماً؛ وكتب إلى أخيه في فبراير سنة 1849 يخبره بما هو فيه من جد، وينبئه بأنه سيبقى في وبطرسبرج إلى الأبد؛ ويصف له في كتابه مبلغ ما للحياة في هذه المدينة من أثر نفسه، فكل شيء يبعث على الجد والدأب، وكل امرئ يسعى سعيه حتى لن يجد المرء من يصحبه إلى حياة عابثة، ولن يستطيع المرء أن يحيا هذه الحياة وحده إلى أن يقول لأخيه (أعلم أنك لن تصدق أني غيرت ما بنفسي وأنك ستقول إنها المرة العشرون ولكن في غير جدوى؛ كلا. . . لقد تغيرت الآن. . . وفوق ذلك فإنني اليوم بداخلي إحساس بأن المرء لا يستطيع أن يعيش بالنظريات والتفلسف، ولكنه ينبغي أن يحيا حياة واقعية، أعني أنه يجب أن يسلك سلوكاً عملياً. . . وهذه خطوة واسعة نحو التقدم).

وفي شهر أبريل يجتاز ليو امتحاناً في القانون المدني والقانون الجنائي بتفوق ملحوظ؛ على أن ذلك لم يكن في الواقع ثمرة جهد متصل وإنما كان ثمرة أسبوعين استوعب فيهما ما استطاع أن يستوعبه من هاتين المادتين.

وفي شهر مايو يكتب لأخيه فإذا به يقول في كتابه (أي سير يوشا. . . أتوقع أنك سوف تقول لي أكثر من عرفت ضعف عزيمة، ولكي أكون أميناً، ينبغي أن أقول إن الله يعلم ماذا كنت أفعل هنا!. . . لقد جئت بطرسبرج بغير سبب معين، ولم أعمل هنا عملاً ذا عائدة، وقصاراى أني أنفقت مالاً كثيراً حتى لقد تورطت في الدين؛ يا للغباء! وأي غباء؟ لن تستطيع أن تصدق كيف يؤلمني ذلك، وبخاصة تلك الديون التي يجب أن أؤديها بأسرع ما في وسعي، وذلك لأنني إن لم أفعل فلست أفقد المال فحسب، بل أفقد معه شرف سمعتي. أعلم أنك ستضج بالشكوى، ولكني ماذا عسى أن أصنع؟ إن الإنسان يقترف مثل هذه الحماقة مرة في مدى عمره. . وإني لأركن إلى عطفك إذ أرجو منك أن تتدبر في إخراجي من هذا الوضع الكريه حيث أجدني مفلساً يحيط بي الدين من كل جانب).

ويعتزم الفتى أن يلتحق بالجيش في فرقة الفرسان متطوعاً في الحرب، وأن يترك جامعة بطرسبرج دون أن يتم دراسته فيها كما ترك جامعة قازان من قبل وكانت الحرب التي يريد أن يتطوع فيها هي تلك الحرب الظالمة التي قذفت بها النمسا الأحرار المجاهدين في المجر، أولئك البواسل الذين رغبوا في الاستقلال عنها وردوا جيشها وقد عصفت العواصف بأنحاء الإمبراطورية حتى استعانت بالجيش الروسي فجاء لمعونتها خمسون ومائتي ألف من هذا الجيش، وكانت روسيا تريد أن تطفئ نار الثورة في المجر حتى لا تمتد إلى بولندة وكانت تحت حكمها فتخلع عنها نير الاحتلال؛ ومن عجب أن يتجه تولستوي إلى التطوع

في حرب ظالمة كهذه الحرب وهو الذي سوف يكون في غده من أكبر الساخطين على العدوان وعلى الحرب أيا كانت بواعثها. . .

وكان لزاماً على من يتطوع أن يقضي سنتين في صحبة الجيش العامل قبل أن يسمح له بحمل السلاح والقتال، ولكن تولستوي كان يطمع أن يتخذ مكانه في الصفوف قبل انتهاء هذه المدة بما عسى أن يبدي من مهارة وقوة، وإن خياله ليس له كل شيء فما إن يفكر في أمر حتى يحسبه حقيقة واقعة، وإنه ليحدث نفسه بأن عمله في الجيش سوف يكسبه خبرة بالحياة والناس، وسوف يخلق منه شخصاً جديداً، إذ إنه بهذا العمل ينجو مما يغريه به الفراغ والشباب من عبث ولهو. . .

ولكنه لا يلبث إلا قليلاً حتى يكتب لأخيه يقول له: (أثبت في كتابي الأخير إليك كثيراً من اللغو، وكان أبرزه ما أشرت إليه من رغبة في التحاقي بفرقة الفرسان، وسوف لا أفعل ذلك إلا إذا فشلت في امتحاناتي أو إذا كانت الحرب ذات خطر).

وجاء الربيع يبعث البهجة والحياة في كل حي، وطافت بخيال الفتى مجاليه في أسحاره وآصاله، هناك في ضيعته المحبوبة ياسنايا بوليانا، فسرعان ما أنطلق من جامعة بطرسبرج كما انطلق قبل من جامعة قازان، وسرعان ما أبعد عن فكره وخياله العمل في الجيش وفي الوظائف المدنية جميعاً، ثم أقبل على ياسنايا، وليس في نفسه هذه المرة من عزم إلا تعلم الموسيقى!

بين العبث والندم

-8-

لن يصبر الفتى على المقام طويلاً ببسنايا، فإن المدينتين: موسكو وبطرسبرج لا تزال تدعوانه إلى مفاتنهما وزينتهما، وما إن يأخذ الفتى حظه من اللهو في إحداهما أو في كليهما حتى ينطلق إلى ياسنايا يطلب الهدوء ويأمل في التوبة، ويرجو أن يتفرغ لشؤون ضياعه، وعلى هذه الحال قضى الفتى ثلاث سنوات يلقي به طول عبثه إلى الندم، ويؤدي به سأمه من ندمه إلى ما كان فيه من عبث؛ وكان في حاليه يمثل حياتي أخويه. فإذا أمعن في عبثه ومجونه وعدم اكتراثه لشيء مثل حياة سيرجي، وإذا ندم وتقشف وزهد الحياة الدنيا وزينتها عاش عيشة ديمتري

ولم يقف عبثه عند حد في العاصمتين؛ فهو في ليله يسرف في الميسر ويغشى أمكنة اللهو وينتقل بين (صالونات) الارستوقراط وأماكن الغجريات المغنيات، يقضي أرب مشاعره من الجمال البهجة، وغاية بدنه من الفسوق والرجس، وهو في نهاره يستمتع بالصيد أو بركوب الصافنات الجياد، أو يملأ فراغه يلعب الورق أو الشطرنج أو بكتابة ما يداخله من ندم في دفتر يومياته، أو باللعب ساعة على البيان، وهو في ليله وفي نهاره يشرب الخمر ويصيب ما يلذه من طعام في أشهر مطاعم المدينة وأغلاها ثمناً. يفعل ذلك في رفقة من صحابته يعبثون ويلهون كما يعبث ويلهو، ويفوزون منه بما ينفق عليهم من ماله. . .

ويحاول أحياناً أن يصنع ما نصحت به عمته تاتيانا إليه، وذلك أن يرتبط بفتاة ذات خلق وكرم محتد، فيدور بعينيه في سهرات الأرستقراط يطالع وجه الأوانس، ويخفق قلبه هذه أو لتلك، ولكنه لا يلبث حتى ينطلق تحت ستار الظلمة إلى حيث يلقي نفسه بين ذراعي إحدى الغجريات!

ويحلم تارة أحلام الزواج فيهو قلبه إلى الآنسات في صحبة أمهاتهن وقد تبرجن وأبدين زينتهن، ويتظرف في حديثه ويظهر أكثر ما يستطيع من مظاهر الأرستقراطية والنبل، ولكنه سرعان ما ينصرف عن هذا إلى ما يوسوس به الشيطان من فجور وإثم يطفئ به ضرام بدنه القوي الذي ما يزال يلتهب من شهوة ويعود إليه تارة تخيله إنه محب وإنه أسير هوى غادة عرفها في موسكو هي الأميرة شرباتوث، وإن كانت هذه الغادة لتجهل كل الجهل ما تحدثه به نفسه من حب، ولا تفطن إلى ما يخيل إليه إنها بعثته في نفسه من عاطفة. . .

وكذلك تساوره أحياناً رغبته في الكمال، تلك الرغبة التي تسلطت عليه زمناً في قازان، ولكن الكمال هنا يتخذ منحنى جديداً غير منحنى الثقافة والمعرفة؛ فهو يريد اليوم أن يكون رجل مجتمعات، يشار إليه في المنتديات والصالونات، ويريد أن يكون حديث مجالس ينصت إله ذوو المكانة ويصفونه بأحسن أوصافهم من النبل والتهذيب والظرف واللباقة؛ ولكنه لا يستقر على هذا الاتجاه. وما هي إلا أن توسوس له أقل المغريات حتى يعود إلى مجونه وجنونه، ليعب منهما ما يشاء له شبابه ثم يعمد إلى دفتره فيثبت فيه ما

يخالجه من ندم ومن تأنيب منه لنفسه؛ وهكذا يحيا الفتى في المدينتين حياة لا تختلف عن حياته في قازان إلا ربما يكون من إفراد في اللهو وإسراف في المال.

ولن يزال الفتى كالفراش الهائم يطير من زهرة إلى زهرة، ومن ثمرة إلى ثمرة، أو يقع على اللهب ليرتد عنه ثم يجذبه الضوء فينجذب إليه، ولا يجد ما يبثه خلجات شعوره ونوازع وجدانه إلا دفتر يومياته؛ كتب في هذا الدفتر سنة 1850 يقول وقد كان في موسكو (إن هذه ثالث سنة لي أقضي شتاءها في موسكو دون أن أكون في منصب ما؛ هنا حيث أقضي حياة سخيفة لا غناء فيها، حياة فارغة لا تهدف إلى غرض؛ ولم أحي هذه الحياة لأن كل امرئ في موسكو يفعل مثلما أفعل، ولكن لأن مثل هذه الحياة هيأت لي أسباب المسرة).

وبلغت حاله من السوء في أواخر تلك السنة بما أسرف على نفسه من الميسر أن أصبح يطلب القليل من المال فلا يكاد يجده ولذلك فكر في أن يشغل منصباً يرتزق من وظيفته، واتجه إلى منصب مدير البريد في مدينة تولا؛ ولكنه لم يجد من ذوي النفوذ من أقربائه من أعانه على تحقيق هذا المطلب، كما لم يجد في نفسه المقدرة على أن يعمل عمل الموظفين فانصرف عن هذا المتجه. . .

لكن ماذا عسى أن يصنع وقد اشتدت به الحاجة إلى المال وفدحته أعباء الدين؟. . . يا عجباً! إنه يريد أن يحذق لعب الورق ليكس المال من الميسر، عسى أن يعوض شيئاً مما خسره فيما سلف من لعبه، وإنما هو كما عرف من قبل وسيلة لإتلافه؛ ثم إن الفتى يضيق بحياته هذه حتى ما يطبق صبراً فيفد إلى ياسنايابوليانا ويقضي الفتى في ضيعته بضعة أشهر لا يكدر عليه صفوه ولا يقطع هدوءه إلا إلحاح عاطفته الحيوانية عليه وظمأ بدنه ذلك الظمأ الذي لا يفتر؛ ولكنه يغالب تلك العاطفة بكل ما في طوقه من عزم، ويصبر على ذلك الظمأ ما وسعه الصبر؛ ثم لا يلبث حتى يجد نفسه وقد غلب على أمره فعاد أكثر مما كان نهماً وطمعاً. والحق إنه كان يعاني كثيراً من الضيق من جراء فشله كلما فشل في مغالبة هذه العاطفة؛ أشار إلى ذلك مرة لأحد مترجمي حياته بعد أن تقدم به العمر فذكر إنه ما من شيء كان أشق على نفسه من محاولته قهر هذه العادة التي تسلطت عليه فلم يقو على دفعها؛ ولقد كان يتأثم منها ويندم أشد الندم كلما منى بفشل جديد، تجد ذلك في مثل قوله سنة 1850 (إني أعيش عيشة بهيمية، ولقد هجرت كل ما عسى أن يشغلني من عمل؛ وإن ذلك ليكدر روحي كدراً شديداً).

ولا يكاد الفتى يجمع من المال قدراً حتى يعود إلى موسكو في شهر مارس سنة 1851؛ وفي نفسه هذه المرة أن يبتعد عن كل ما يشين لأنه اليوم يريد أن يصل إلى مكانة مرموقة في المجتمع وأن يشغل منصباً ذا خطر وأن يتزوج من ذات ثراء ومحتد. . .

وراح يغشى أواسط الارستقراط يشهد الحفلات والولائم، يهمه أن يتعرف على العلية وذوي المكانة والنفوذ؛ إذا جلس في حلقة أخذ بقسط موفور من الجدل والحديث، وحاول ما استطاع أن يكون هو الذي يدبر الكلام ويصرف وجوهه، وحرص على أن تكون آراؤه مثيرة للدهشة أو للانتباه أو للمعارضة، واجتهد

أن يبرز أقصى ما لديه من علم فيما يتشقق إليه الحديث من مسائل فيفيض ويشرح وجهة نظره ويسرد الأمثلة ويبسط الحجج في لهجة المتمكن القادر.

وعادت تطوف برأسه أحلام الزواج؛ وعاد يتذكر ما تمنته له عمته تاتيانا؛ فقد كان أجمل ما تمنته له في رأيها أن يتزوج بفتاة عظيمة الثورة وأن يمتلك من رقيق الزراع أكثر ما يستطاع أن يمتلك؛ ولكنه يرى إن مثل هذا الرباط لن يكون إلا بالحب، وهذا ما لا يحس أنه انتهى فيه إلى رأي.

وكان لا يزال يطمع أن يعينه بعض ذوي النفوذ والجاه من أقربائه أو أصدقائه على أن يظفر بمنصب من مناصب الدولة ينعم فيه بالمال والجاه، ولكنه لم يصل من ذلك إلى كل ما يريد. .

وكان قد صمم عند مجيئه إلى موسكو ألا يقرب الميسر وقد أوصته عمته أن يتحرر من هذه العادة المتلفة للمال الموبقة للروح؛ ونفذ الفتى أول الأمر ما عقد عزمه عليه وابتعد عن الميسر كل الابتعاد كأنه أمر ينفر منه بطبعه؛ ولكن ما كان أعجب عودته إليه بعد قليل بأمل من جديد أن يجد فيه مخرجاً مما هو فيه من عسر ؛ ولعب ما وسعه اللعب وخسر خسارة كبيرة، ولكن الخسارة لم تزده إلا إسرافاً في اللعب وعد اكتراث لما يكون للعب من عاقبة حلوة كانت أو مرة قاسية المرارة؛ ولقد بلغ به الأمر أن رهن ساعته يوماً ليدفع ثمن معطف ذي فراء أراد أن يدخل على روحه بعض البهجة يلبسه والتنبل به وإن صفرت من المال يده. . .

وضاق صدره بحياته على هذه الصورة وعزا هذا الاضطراب إلى ضعف عزيمته. كتب في دفتره يقول (إن ألاحظ إن أهم عاطفتين تتسلطان علي هما الميل إلى اللعب ثم الغرور)؛ وراح يتهم نفسه كل يوم في دفتره ويندم ما وسعه الندم؛ وجعل لكل يوم من أيام الأسبوع في دفتر آخر فضائل يؤديها وأخذ يشير بعلامة إلى ما قصر في أدائه حتى لا يعود إلى التقصير في مثل ذلك اليوم من الأسبوع التالي؛ ثم لاذ الفتى بالدين فزهد الحياة أياماً فصام وصلى وألف دعاء يدعو به الله ليخرجه مما هو فيه. .

ولمحت للفتى بارقة أمل؛ لم لا يجعل الأدب حرفة له؟ ألم تكن عمته تاتيانا على حق قالت له ذات يوم (إني أعجب يا عزيزي ليو كيف لا تكتب رواية ولك مثل ما لك من خيال؟).

وكان الفتى يقرأ القصص أكثر ما يقرأ، ولم ينقطع عن القراءة مهما شغلته الشواغل أو ملأ حياته اللهو، ولا يزال إعجابه بروسو عظيماً، وكذلك لا يزال يجعل لدكنز منزلة عظيمة في نفسه؛ أما الكتاب الروس فقد كل يقبل منهم على بوشكين وجوجول إقبالاً شديداً، وكان لثانيهما تأثير قوي في خياله وعلقه؛ وبدأ يلتمع اسم ترجنيف وكان أكبر من تولستوي بعشر سنوات، وقد نشر أكل كتبه سنة 1847 وهو مذكرات رجل صيد، وكان لهذا الكتاب كذلك تأثير عميق في خيال ليو ووجدانه، وبخاصة ما أظهره مؤلفه في فنه القوي المحكم من حياة رقيق الأرض. وقرأ الفتى لغير هؤلاء الكتاب كتب شلر وكتب ستيرن وغيرهما من فحول القصة والشعر.

وتصادف أن كانت قصة دكنز العظيمة دافيد كوبرفيلد تنشر يومئذ تباعاً في إحدى المجلات فأحدثت في نفسه أثراً لم تحدث مثل قصة غيرها وظلت لها في نفسه المكانة الأولى حتى آخر حياته.

وماذا عسى أن يكتب الفتى؟ ذلك ما حيره أول الأمر حيرة شديدة؛ أيصف حياة الغجر كما فعل بوشكين وإنه اليوم بهم عليم؟ أيكتب قصة عمته تاتيانا؟ لا إنه لا يميل إلى هذه ولا إلى تلك فماذا يكتب؟ ليصف زيارته بالأمس لتلك الأميرة شيرباتوف التي ظن أنه يحبها؛ وأقبل الفتى فوصف هذه الزيارة، ولقد نشرت هذه القصة الصغيرة حديثاً بعد أن عثر عليها ورأى الناس أول عمل أدبي لنابغة كتاب القصة في القرن التاسع عشر فإذا بهذه الباكورة تنطق بكثير من دلائل عبقريته. . .

ويقول ليو في دفتره (إن الوصف ليس كل شيء. كيف ينقل المرء إلى القارئ شعوره؟). قال ذلك لأنه كان قد اعتزم أن يجعل الوصف غايته من الكتابة فيصف كل ما تقع عليه عيناه.

ثم بدا له وكأن أثر دافيد كوبرفيلد قوياً في نفسه أن يكتب أيام طفولته، وانكب على الكتابة كل صباح من الساعة الخامسة حتى الحادية عشر حتى أتم باكورة آثاره التي كتب لها الخلود.

ولكن حياة اللهو وما أسفاه تعود فتصرفه عن هذا الجد. فيقبل على لذاذاته ويسرف من جديد في مجونه وعبثه، ثم لا يجد آخر الأمر خيراً من أن يلوذ بضيعته من هذه الحياة التي سئمها وسئم نفسه بسببها فيعود إلى باسنايا في صيف عام 1851 ولم يتزوج من ذات ثراء ولم يظفر بمكانة في المجتمع ولا بمنصب خطير من مناصب الدولة، ولم يتحرر من الميسر ولا مما يوهن عزمه من نوازع بدنه القوي الذي لا تهدأ حيوانيته. . .

وأقام في القرية أياماً يخالجه شعور الندم على ما كان من عبثه الذي أسرف فيه على نفسه وشعور الحسرة على ما آلت إليها حاله من عسر ومن دين، وينظر اليوم إلى هؤلاء الرقيق الزراع الذين أراد إصلاحهم بالأمس فيؤله أنه انقلب اليوم مبدداً لما تنتجه أيديهم من خير؛ فلا هو أصلحهم ولا أفاد من كدهم إلا ذلك المال الذي يذهب هباء في الميسر والترف والغرور والفسوق.

وينقاد إلى جموح بدنه في القرية كما كان يفعل في المدينة، لا يهدأ هذا البدن ولا ينطفئ لهبه؛ ولكنه يشعر باشمئزاز شديد ذات ليلة أثر فعلة من فعلات الشباب فعلها تحت جنح الظلام، وكأنما استيقظت في نفسه مشاعر جديدة في تلك اللحظة جعلته ينكر هذا الذي فعل إنكاراً شديداً كان أكثر قيمة من ذلك الندم الذي كان يخالجه كل مرة ثم لا يلبث أن يموت.

كره الفتى حياته كرهاً شديداً، وضاق بالمقام في ياسنايا وفي موسكو وفي بطرسبرج، وما له غير الرحيل شفاء لنفسه ومنجاة لروحه، فليرتحل إلى حيث لا يجد شيئاً يذكره بالذي كرهه أشد الكره وأنكره كل الإنكار من مواطن مجونه وعبثه وفراغ حياته.

روسيا لا تزال في الغسق

-9-

أهل على أوربا نور القرن التاسع عشر وروسيا ما تزال في الغسق؛ ولئن لاحت في أفقها بشائر الفجر لحظة على يد قيصرها الإسكندر الأول ولى أمرها في أول أعوام هذه القرن فإنها ما لبثت أن علمت أنه الفجر الكاذب!

كان الإسكندر يريد أن يوجه همه إلى النهوض ببلاده في الداخل، وقد اعتزم أن يجنبها ويلات الحرب في الخارج، ولكن سرعان ما فطن أن طوفان الحرب لابد مدركه فحالف إنجلترة والنمسا وظاهرهما على نابليون، ومن ثم ذهبت بشائر الفجر أباديد في حلكة الليل العابس.

وما لبثت أن ساق نابليون الجيش الأعظم ليذل به روسيا ولكن حملته عليها كانت بداية نهايته؛ ولما حمل بعد وترلو إلى سنت هيلانة، أصبح القيصر في القارة مرموق المكانة عظيم الخطر ولكن هذا الوضع الذي هيأته الظروف لروسيا في سياسة القارة كان يتطلب رجلا غير الإسكندر، فلقد حار هذا الرجل بين دعاة الرجعية وأنصار الحرية كما أضله زمنا تصوفه وحلمه اللذيذ الذي خيل إليه أن في الإمكان أن تجعل أوربا تسامح المسيحية أساس العلاقات الدولية؛ وأخيرا تغلبت عليه سياسة مترنخ، فصار من أكبر أنصار الرجعية في القارة وفي روسيا، وفقد دعاة الحرية أملا عللوا به أنفسهم برهة على يديه.

وأخذت أوروبا تقاوم الرجعية فكانت تلوح بشائر النور مرة وتختفي مرة، ولكنها ترى كل مرة أسطع منها في سالفتها نورا وأطول أمداً حتى ذهب الليل وانهل النور فأضاء كل ركن في القارة ومحا كل ظلمة.

ولكن ليل روسيا قائم قاتم وآفاقها عابسة دامسة؛ وكان يدب تحت هذا الليل نحو تسعة وأربعين مليونا من الأنفس كلهم عبيد ومن هؤلاء زهاء ثلاثة وعشرين مليونا تابعون للقيصر، ومثل هذا العدد تابعون لملاك الأراضي، وما تبقى بعد ذلك فتابعون للكنيسة أو أوزاع وخدام.

ولم يك هؤلاء الملايين يملكون من أمرهم شيئا؛ إذ كانوا في كل أمر خاضعين لمشيئة سادتهم لا ينتقلون من جهة إلى جهة غيرها ولا يمتلكون شيئا أو يبيعونه إلا بإذن من هؤلاء السادة؛ وهم فوق ذلك مكلفون بأن يؤدوا للسيد ما يطلب من المال كضريبة أو كمنحة وأن يعملوا مسخرين في أرضه، وللسيد إذا باع أرضه أن يبيعهم كما تباع القطعان والسلع؛ وهو ينزل بهم ما شاء من أنواع العقاب كالجلد والحبس والنفي إلى سيبيريا.

وكان السادة الأرستقراط يعيشون عيشة مترفة، ولهم في قصورهم كل ما في الحياة الأوربية من مظاهر النعيم، فالموائد والحفلات الساهرة الأثاث والخدم على اختلاف أعمالهم ومراتبهم كل أولئك على النمط الأوربي. وأخذت العادات وآداب المجتمع الأوربي تتغلب على عادات الروس وعرفهم في هذه البيوت

الأرستوقراطية التي تجعل قياس التمدن الأخذ بأكبر قسط من كل ما هو أوربي، حتى اللغة فإنهم في هذا الوسط يتكلمون الفرنسية في حفلاتهم التي تجمع بين الرجال والنساء وفق الأسلوب الأوربي. . .

وانحطت الحكومة، فلا أمانة ولا عدالة، ولا إصلاح؛ وكانت وظائف الدولة لمن يدفع من المال أكثر مما يدفع غيره، لو لمن كان له بذوي الجاه صلة، فأصبحت الرشوة أمرا لا غرابة فيه، وتفشت حتى تسللت إلى المحاكم دانيها وعاليها، ولم يكن للحكومة منهاج أو شبة منهاج للإصلاح، وحسب رجالها في المقاطعات أن يجمعوا لأنفسهم المال بكل ما وسعهم من حيلة أو واتاهم من بطش. . .

وكان الملايين من الزراع أضعف من أن يشتكوا؛ لهذا حملوا الآلام كما تحملها الدواب فلم يكونوا صابرين على حالهم وإنما لم تكن لهم فيه حيلة! ولقد كانت حال هؤلاء المساكين أسوأ كثيراً من حال المزارعين في فرنسا قبل ثورتهم الكبرى، ولكن أولئك الفرنسيين كانت بينهم طبقة امتلكت وتعلمت وتأثرت بكتابة المفكرين والفلاسفة وهي الطبقة الوسطى، ومن بين صفوف هذه الطبقة انبعثت الشكوى ثم رجفت بعد ذلك الراجفة!

أما في روسيا فلم يكن غير كبار الملاك وهم السادة وملايين الزراع وهم العبيد؛ على أن مقاومة الاستبداد في روسيا جاء على يد نفر من هؤلاء السادة المتملكين، الأمر الذي يبدو عجبا لما فيه من تناقض؛ ولكن للمسألة وجها يفسر هذا التناقض، وذلك أن هؤلاء السادة لم يكرهوا الاستبداد ولكنهم كرهوا أن تعتمد الحكومة القيصرية على طبقة الموظفين والحكام ومعظم رجالها من عنصر ألماني وتهمل أعيان الروس رغبة في القضاء على طموحهم نحو التسلط، ومن ثم رحب هؤلاء بكل شكوى تنبعث ضد القيصر وحكومته.

وثمة فريق آخر أشد العطف على كل رغبة في الإصلاح وهؤلاء هم رجال الجيش العائدون من فرنسا والقارة بعد سقوط نابليون وبخاصة الشبان، فلقد امتلأت قلوبهم بآمال وأحلام، وعادوا إلى روسيا آملين أن يطلع على بلادهم نور يزيح عنها هذا الغسق، كما عاد لافابيت وأقرانه من شباب فرنسا الذين تطوعوا في صفوف الأمريكان في حرب استقلالهم إلى وطنهم يحملون مبادئ الثورة ويرتقبون الميلاد الجديد. . .

وتسامع هؤلاء الرجال بالجمعيات السرية في القارة كالكاربوناري في إيطاليا والهيتيريان في اليونان، فأسسوا لهم في روسيا رابطة الخير العام، وجعلوها سرية بالضرورة، وتفرع من هذه الجمعية فرع في الشمال كانت وجهته الملكية الدستورية، وفرع في الجنوب كان لا يرى غير الجمهورية؛ كما نبتت في الجنوب جماعة سرية أخرى جعلت منهاجها ضم جميع السلاف في اتحاد عام ولكن هذه الجمعيات كانت كما وصفها أحد الكتاب (جيلا لا آباء له ولا أبناء)، فظلوا بعد أفكارهم ومبادئهم عن أذهان معاصريهم محصورين لا يكاد نطاقهم يتسع، ولم يأتوا عملا ذا بال إلا في سنة 1825 فإن لما مات الإسكندر ترك ثلاثة أخوة كان أكبرهم قسطنطين ولذلك فهو وارث الحكم، ولكن الذي ارتقى العرش كان نيقولا بدعوى أن أخاه تنازل له عن حقه كما أراد القيصر المتوفى؛ وأحيط ارتقاء نيقولا العرش على هذا النحو بشبهات فانتهزت الجمعيات السرية الفرصة ورفضت فرقة جيش موسكو أن تقسم يمين الولاء للقيصر الجديد،

ووقعت بعض القلاقل في الجنوب، ولكن القيصر ما لبث أن تغلب على هذه الحركة في يسر وتعرف بحركة الديسمبريين لأنها وقعت في ديسمبر من ذلك العام؛ وقضى بعض أفراد الجمعيات نحبهم ونفى البعض إلى سيبريا. قال أحد زعمائهم عند إعدامه (لقد كان خطأي أني حالت أن أجمع الحصيد قبل أن أبذر الحب)؛ وقال آخر (لقد عرفت من قبل أن لا أمل لنا في النجاح كما عرفت أنه لابد أن أضحي بحياتي! إن ساعة الحصار آتية فيما بعد).

لقد كان الحصار الذي يرجون هو الحكم الدستوري والمساواة لدى القانون وتحرير الزراع؛ ولئن قضى عليهم اليوم فلم تذهب دماءهم عبثاً، دم هو مهر للحرية الزهراء. . .

واشتدت حلكة الغسق في عهد نيقولا الذي عرف منذ البداية بالصرامة القاسية، وامتدت يد الطغيان إلى كل مكان، فعلى كل ما يطبع من الكتب والصحف وما يرد منها من الخارج. رقيب عتيد له من السلطان ما يمكنه من إلقاء أي شخص في غيابة السجن أو نفيه بغير محاكمة؛ والشباب سجناء في روسيا لا يسمح له لهم بالتعلم في أوروبا مخافة العدوى، ورجال الشرطة السرية يبثون عيونهم في كل ركن، ولا يحد سلطانهم قانون ولا عرف؛ ولا تقل آثامهم وفظائعهم عن فظائع محاكم التفتيش الإسبانية في العصور الوسطى إن لم تزد عنها فحشا وهولا، والقيصر مهيمن متربع على عرشه يحسب سكون الناس رضاء وولاء أو لا يجري في حسابه من عصيان أو ولاء. . .

ونسى القيصر أو لم يدر بخلده أن الحرية يعمل لها أعداؤها وأنصارها على سواء، فأولئك يذيقون الناس لباس الذل والخوف ليزدادوا له مقتا ويحتالوا على النجاة منه؛ وهؤلاء يذيقونهم الأمن والسلام ليلذهم طعمه ويحرصوا على الدفاع عنه.

ونعم القيصر بالا بما يرى من هدوءه، ولكن دوى العاصفة يسمع من خارج روسيا لا من داخلها، فها هي ذي حرب القرم تضعه وجيشه منذ سنة 1853 تلقاء جيوش انجلترة وفرنسا وتركيا مجتمعة، ويتلفت القيصر باحثا عن حماسة الروس فينقلب إليه البصر خاسئا إذ أن كل ذي رأى في البلاد ينقم على الجيش ضعفه ويعزو ذلك إلى ما شمل الحكومة كلها من فساد. . ويحرم الطاغية من الاحترام كما حرم من المحبة، ويوشك أن يسمع دوياً آخر من داخل بلاده؛ وأي دوي كان إذ مس أذنه أشد إزعاجاً له مما احتواه ذلك المخطوط الذي تداوله الناس فيما تداولوا من المخطوطات على غفلة من الرقيب والشرطة السرية. قال مؤلفه فيما قال (يقول القيصر: لقد جعلني الله حيث أنا مهيمنا على روسيا فعليكم أن تنحنوا راكعين أمامي فإن عرشي هو كرسيه، ولا تعنوا أنفسكم بالمصالح العامة فإني أفكر من أجلكم وأسهر على مصالحكم كل ساعة؛ إن عيني الساهرة تنفذ إلى المساوئ الداخلية وإلى ما يعده لنا في الخارج أعداؤنا؛ وما أنا في حاجة إلى من يشير على فإن الله يلهمني الحكمة فافخروا إذا أيها الروس بأنكم عبيدي واجعلوا مشيئتي قانونكم.

ولقد أنصتنا معشر الروس إلى هذه الكلمات في خشوع عميق وسلمنا طائعين. فماذا كانت العاقبة؟ كانت عاقبة ذلك أن دفعت المصالح الحقيقية تحت جبال من أكداس الأوراق الحكومية، وصار يستمسك بحرفية القانون في كل ما يصدر منا، بينما يترك الإهمال والجريمة بغير عقاب إذا جاءت من أعوان

الحكومة، هؤلاء الذين يتمرغون في التراب أمام الوزارة ثم يسرقون في غير حياء. . . لقد باتت السرقة أمرا مألوفا حتى أصبح أكثر الناس احتراما أكثرهم سرقة؛ وصارت تقرر كفايات الضباط بمجرد النظر ؛ وإذا حصل شخص على منصب قائد فإنه في نفس الوقت يمكن عده حاكما قديرا أو مهندسا ممتازاً أو سياسيا حكيما. وإن هؤلاء الذين يختارون حكاما في الجملة هم طغاة حقا يوكل إليهم عذاب الناس في الإقليم؛ وكذلك تملأ المناصب الأخرى دون أقل مراعاة للاستحقاق، فسائس الخيل مثلا يعين رقيباً للمطبوعات! ولماجن الأحمق من حاشية القيصر يعين أميرا للبحر!. . . وماذا صنعنا نحن معشر الروس طوال ذلك الوقت؟ لقد نمتا!. . أدى الفلاح ما فرض عليه وهو يئن ورهن المالك نصف ضيعته وهو يئن، وأدبنا جميعا ما يطلب منا لرجال الحكومة ونحن نئن؛ ولقد هززنا رؤوسنا أحيانا في جد هامسين إن هذا عار وهوان، كما تهامسنا أن لا عدل في ساحات العدل، وأن الملايين يقضون حياتهم عبثا في سبيل تمتع القيصر بسياحاته وجواسق حرسه ومباني أبهته وسرادقاته؛ إن كل شئ حولنا خطأ، ومع ذلك فأنا بضمير هادئ يشاغب بعضنا ليحظى بالتقدم خطوة ليلحق بهذه الخدمة التي نمقتها كل المقت. . . فإذا صاح أحد بنا بغتة في هذه الغفلة الشاملة أن أفيقوا وجاهدوا في سبيل الحق وفي سبيل روسيا فما أعظم ما يبدو لنا من سخفه، ثم إنه يتعلم في سجن مظلم في سيبيريا أي إثم عظيم ارتكبه بمحاولته إقلاق ما يغط فيه الغافلون من العبيد من نوم عميق.

ولكننا مع هذا كله كان لنا عزاء واحد؛ أمر يحق أن نفخر به وذلك هو قوة روسيا، وها نحن أولاء أسفاه بعد تفاخرنا قد أخذنا على غرة وأحيط بنا ونحن غافلون. . . أفيقي يا روسيا! التهمك الأجانب من أعدائك وحطمتك العبودية؛ واضطهدك وأخجلاه الحمقى من ذوي السلطة ومن الجواسيس. . . . أفيقي من نومك هذا الذي امتد في جهل وغفلة وقفي ثابتة هادئة أمام عرش الطاغية واسأليه أن يقدم حسابا عن الكارثة القومية)

وكان رجال الحكومة يشعرون أن كثيرا من الأنظمة القائمة يومذاك إنما تقوم على ما يحسه الناس في أنفسهم من اطمئنان إلى قوة القيصر أو قوة الدولة، فلما سقط حصن سباستبول زلزلت القيصرية زلزالا عنيفا، حتى لقد تناثرت الإشاعات أن القيصر نيقولا حين قضى نحبه إنما مات منتحراً، ولقد كان حكم ذلك القيصر الذي حكم روسيا ثلاثين سنة أشبه بظلمة الليل إذ تشتد حلكته قبيل الفجر، وكان لروسيا آخر عهدها بالظلمة، فلما مات تنفست الصعداء، وتلفتت تتلمس مطعم النور.

خيوط من النور

-10-

لئن اشتدت حلكة الليل في عهد نيقولا، وأحاطت الناس المخاوف مما كان يتهددهم من المهالك، فإن خيوطاً من النور برغم ذلك كانت تتراءى على الأفق فتكون لأنفس الأحرار أنساً وشفاء وعزاء. . .

حالت القوة بين الروس وبين أي عمل يتصل بالسياسة فقام الفكر والأدب مقام العمل؛ ولكن أي فكر هذا وأي أدب وكيف يتسنى له أن يخرج من الرؤوس، وكيف تتجاوب به نفوس الأحرار والرقيب من ورائهم محيط وسلطة لا يجدها قانون ولا نقومها نصفة؟ ليس غير الفن ينفس به الأحرار عن أنفسهم وقد اختاروا من صور الفن: القصة والشعر والموسيقى. . . وراحوا يهمسون بهذا الفن همساً سوف يكون له في روسيا دوى عظيم.

كانت القصة الروسية على حد تعبير أحد الكتاب (صرخات من فوق خشبة الصلب)، ولكنها كانت صرخات القوى الذي أنطقه الألم الهائل على رغمه، لا صرخات الخائر الذي يستعطف ويبكي. . .

ولما كانت القصة في مقدمة الوسائل التي عبر بها الروس عما في نفوسهم، فقد برعوا فيها براعة جعلت الكثيرين من فطاحل النقد في أوروبا يسلمون لروسيا بالتنسيق في هذا الميدان، فعندهم أن فن القصة بلغ أوج كماله في القرن التاسع عشر في روسيا فقد سبق الروس في هذا القرن أساتذتهم من الفرنسيين والإنجليز والألمان حتى غدوا هم الأساتذة وأحدثوا في هذا القرن أثراً بعيداً في فن القصة في هذه الأمم الثلاث وفي غيرها ممن نقلوا القصة الروسية إلى آدابهم. . .

وليس بعجيب أن ينبغ الروس في هذا النوع من القصة، فأمام غيرهم مجال القول متسع في غير هذا الفن، ولكن الروس اضطروا أن يظلوا على القصة عاكفين زمناً طويلاً فتهيأت لهم أسباب التفوق، وتعددت في القصة مذاهبهم وأساليب تعبيرهم، واتضحت هذه المذاهب واستقرت، وطوعت هذه الأساليب وأساس قيادها.

كان على كتاب القصة أن يخلقوا وسيلة بها يتكلمون ولكن على ألا يفطن إلى ما يريدون المنصتون من الحكام والرقباء، وكانت القصة في ذاتها كعمل فني خير معين لهم على ذلك ولكنهم أضافوا إليها ما أضافوا من صور الوصف فأبدعوا تصوير ما كانوا يريدون تصويره من مشاهد الحياة وآلامها، وألوان العواطف الإنسانية وخلجاتها؛ ولقد أدى بهم هذا إلى أن يسلكوا وإن لم يقصدوا مذهب الفن للفن، فلم يدعوا إلى شيء إيجابي أو يقترحوا علاجاً لداء؛ وإنما اكتفوا أو اضطروا في الحق أن يكتفوا بتصوير الحياة

الروسية كما هي بما فيها من خير وشر، ومن هنا كذلك كان المذهب الواقي هو الغالب في القصة الروسية.

وكان هذا الوصف أعلى في الآذان صوتاً وأعمق في النفوس أثراً من كافة صورة التعبير التي أتيحت لغير الروس، من فلسفة ومقالة ومحاضرة وبحث، وتلك هي ميزة الفن وبخاصةً فن القصة وقد بلغت أقصى ما يبلغه فن كأداة للتعبير على أيدي أساطين القصة الروسية.

وثمة صفة أخرى للقصة الروسية، وتلك هي انطواؤها على كثير من النذر، ويشاركها في ذلك الشعر إلى حد كبير، حتى ليمكن القول إن الأدب الروسي في القرن التاسع عشر كان أكثر من أدب أية أمة تنبؤا بالمستقبل المخيف؛ بل لعل هذا التنبؤ هو خاصته التي مازته من غيره فهو نذير للناس بالهول والبلاء والشر المستطير، وقل أن كان بشيراً بشيء إلا بما يفهم مما يتضمنه هذا الشر المنتظر من معنى الثورة التي تذهب بالمساوئ القائمة وتفتتح في تاريخ البلاد عهداً جديداً. . .

ولقد كان الأدب الروسي في الواقع لهذه العوامل المحيطة به أدباً تأثراً؛ لا بما كان ينذر به من هول فحسب ولكن من هدوئه كان متنفساً للنفوس مما كانت تنطوي عليه من ثورة، أو كان شكاة وأنيناً أو (صرخات من فوق خشبة الصلب).

والفرق واضح بين هذا الأدب الروسي وبين أدب فرنسا قبيل ثورتها الكبرى على أيدي فلتير وروسو ودبدرو وإضرابهم فقد تفلسف أولئك الفرنسيون وسخروا وبينوا سبل الخلاص وواجهوا المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية مواجهة مباشرة فكانوا في الغالب فلاسفة مفكرين، ولكن الروس صوروا فحسب، فلم يبينوا لنا المعايب الاجتماعية وأسبابها وشقاء العيش وعوامله، وإنما خلقوا لنا أناساً أشقياء يتألمون وتفدحهم كوارث الحياة ولا يدرون ماذا يفعلون.

ولقد أحدث هذا الأدب أثره العميق في النفوس على الرغم من الرقابة والرقباء، حتى انتهى الأمر إلى ثورة جارفة كانت في الواقع من صنع الفن وحده؛ وليس في هذا الذي نذكر شيء من الغلو، فبالفن لا بالأفكار المجردة، ولا بالدراسة المباشرة لمشكلات روسيا هدم أدباء الروس صرح العهد القديم، وعلى ألسنة أشخاصهم التي خلقوها وفي ميول هذه الأشخاص ونزعاتها وحركاتها عبر الكتاب عما يريده كل روسي وأفصحوا دون أن يقولوا قولاً صريحاً عما كان يشغل الأذهان من آراء في الاجتماع والسياسة والاقتصاد ما كان ليسمح بها الرقيب. . .

وفي الأدب الروسي جانب روحي أسكبه صفة إنسانية عامة بها وجد سبيله إلى قلوب الناس في كل أمة؛ وهذا الجانب الروحي فيه هو محاولة الوصول إلى خلاص للإنسان عامة من شرور الحياة وشقائها، وتوقعه حياة أخرى أسمى من هذه الحياة، ومرد ذلك في الواقع إلى هول ما عانى الروس من ظلم وما ذاقوا من ألم وشقاء. ومن عجب الأمور أن كثيراً من الأدباء الروس على ما بلوا من شرور الحياة حولهم وآثامها كانوا يؤمنون في كتابتهم بالخير وأنه هو الأصل في الإنسان، وأن الشر يأتيه من الحياة وملابساتها، فكان هؤلاء الأدباء متفائلين مع ما كانت تريهم الحياة من دواعي التشاؤم.

وكفر أدباء روسيا بمدنية الغرب وثقافة الغرب، فلم يروا إنهما حق كلهما، وإنما أحسوا فيهما بكثير من صور الباطل؛ وارتابوا في كثير من المبادئ التي أخذ بها العالم الغربي واطمأن إلى استقرارها وصلاحيتها لتقدم العمران والسمو بمستوى الحياة؛ وساورهم كثير من القلق فيما عسى أن تفضي إليه هذه المبادئ من كوارث قد تطيح بها وبمدنية الغرب جميعاً، وقد أضاف هذا الكفران بمدنية الغرب وثقافته إلى الأدب الروسي والقصة الروسية نغمة ارتاحت إليها النفوس القلقة، وزادت هذه النغمة ثورة هذا الأدب بروزاً، وجعلت له خطراً كبيراً في تاريخ الفكر البشري. . .

وأدى هذا الكفران بمدنية الغرب ومبادئ المجتمع الغربي إلى اتساع أفق الأدب الروسي، فبات يتعمق النظر في مسائل الحياة والموت وما عسى أن يكون وراء هذا الكون العجيب من أسرار ود الأدباء لو استطاعوا أن يهتدوا إلى شيء ما، وقد صبغ هذا الاتجاه الأدب الروسي بصبغة دينية صوفية لا مثيل لها في أدب الغرب. . .

كان الشعر أسبق من النثر في هذا القرن ولذلك حق أن نتكلم أولاً عما كان للشعر من أثر فيما نحن بصدده، وقد تجلى هذا الأثر في شعر شاعرين كانت لهما أو على الأصح كانت لأولهما زعامة الشعر الروسي الحديث وهما بوشكين وليرمونتوف. وقد ولد أولهما سنة 1799 ومات في الشهر الأول من سنة 1837. وولد ثانيهما سنة 1814 ومات سنة 1841.

تمثلت الروح الجديدة في حياة بوشكين وفي شعره، ولقد كان لهذا الشاعر الفذ الذي مات في الثمانية والثلاثين من عمره، أعمق الأثر في الأدب الروسي في القرن التاسع عشر. . .

يعد بوشكين بحق أحد عباقرة الشعر في جميع عصوره وعلى اختلاف بيئاته، فقد خلق موهوباً كما يخلق أفذاذ هذا الفن وفحوله فله قوة الشعر وعمق الفكرة وصدق الإحساس وحدته وسمو الروح وحرارة الإيمان وجمال النفس، وله إلى جانب ذلك الأداة الطيعة من التعبير الجميل القوي والموسيقي الرائعة الحلوة.

على أن ما يعنينا هنا هو أثر فنه لا قيمة ذلك الفن؛ ولقد كان أكبر تأثيره في حياة قومه بما تغنى به من أغاني الحرية، تلك الأغاني التي هزت النفوس هزاً.

تأثر بوشكين بشاعر عظيم متمرد تأثر هو اللورد بيرون الذي قضى نحبه سنة 1824 في حصار مسولنجي مصاباً بالطاعون، وقد كان يدافع مع المدافعين عن حرية اليونان، وأعجبت بوشكين حمية بيرون كما أعجبته طريقته في الشعر، وكان من أبرز خصائص بوشكين أنه يتمثل آثار غيره ويتأثر بها ولكنه لا يفقد أصالته ولذلك فقد احتفظ بروحه الروسية وإن اصطنع أسلوب بيرون.

تغنى بوشكين بعظمة روسيا وقوتها وكان يعد بطرس الأكبر بطلها الفرد، وغنى بمثل البكاء حياة فلاحيها وشقائهم، وكان شعره مليئاً بالنذر، فكان منذراً للطاغيين مبشراً بحرية سوف تنعم بها روسيا بعد طول الأسر والعذاب تجد ذلك في قوله (إنا منتظرون، وقلوبنا المتلهفة تخفق بالأمل في الحرية المقدسة كما ينتظر العاشق الشاب ساعة لقائه بفاتنته).

وتأثر بوشكين كذلك بمبادئ الثورة الفرنسية، وكان صديقاً للديستمبريين، ولكنه كان قد نفى إلى ضيعة أمه قبيل حركتهم فلم يشارك فيها ونجا بذلك من الموت لينظم لروسيا خير ما أخرجت من شعر وليوقظ مشاعرها ويطبع أدبها بطابعها، وليكون شعره حداءها الممتلئ بالأمل والسحر.

وكان حول بوشكين عدد من الشعراء، كان ليرمنتوف الذي بدأ ينظم الشعر من سن الرابعة عشرة أبرزهم وأقواهم موهبة، وقد تأثر هذا الشاب الشاعر بيوشكين أولاً ثم بشلر وأخيراً باللورد بيرون ذلك الذي أحبه ليرمونتوف حباً كاد ينسيه كل شاعر غيره حتى بوشكين نفسه.

وكان ليرمونتوف في شعره منذراً أكثر مما أنذر بوشكين، وقد أذاع قصيدة غفلا من اسمه سنة 1830 تنبأ فيها بالثورة، حتى ليعجب من يقرأها بعد الثورة البلشفية من صحة نبوءته؛ فكأنما كانت تتكشف له حجب الغيب؛ وتغنى ليرمونتوف بالحرية كما تغنى بوشكين، وكان ينظم الشعر في يسر فيجئ قوياً متدفقاً كالسيل، ولكن الموت لم يمهله لتمد موهبته غاية مدها فمات وهو في السابعة والعشرين. . . على أنه قبل وفاته بسنة أخرج وصية نثرية سنة 1840 تعد أول قصة تحليلية في الأدب الروسي الحديث وهي القصة المسماة (بطل من أبطال عصرنا)، ولذلك يعد هذا الشاعر الفذ طلعة في فن القصة.

ونعود بالحديث إلى القصة فنجد أن الكاتب الذي يعد مقامه في القصة كمقام بوشكين في الشعر هو جوجول المولود سنة 1809 والمتوفى سنة 1852؛ وليس معنى ذلك أنه لم يوجد قبل جوجول قصصي، وإنما نقصد أن جوجول كان رائد القصة الروسية في القرن التاسع عشر وكان زعيماً من أكبر زعمائها غير مدافع. . .

قام فن هذا القصصي على أساس السخرية من المعايب الاجتماعية في عصره، ولم تكن سخريته سخرية نفس هادئة تعطف على ما تخلق من الشخصيات وترفق بهم وتضحك مع الضاحكين كسخرية شارلزدكنز مثلاً، وإنما كان سخرية عنيفة هدامة تبرز المعايب عن سخيمة ونقمة كأنها سخرية شيطان يلهو بزلة فريسة من فرائس غوايته.

كان يؤلم جوجول أن يرى روسيا وقد ذاع فيها الشر والفساد والباطل، وماتت فيها روح العدالة والخير، وكان يقول دائماً إنها ممتلئة بالأقعنة الكاذبة حتى ما تقع العين على آدمي واحد فيها، والحق أنه قلما اطمأن إلى وجود شيء من الخير في الحياة الروسية فقد استشرى الشر في رأيه حتى لم يدع للخير مجالاً. . .

وقد أنتج جوجول عدداً غير قليل من القصص والصور الاجتماعية، ويهمنا فيما نحن بصدده ثلاثة منها هي (المفتش العام) و (الأنفس الميتة) و (العباءة) أما القصة الأولى فهي ملهاة تهكمية تدور حول نبأ أذيع بأن مفتش الحكومة العام قادم للتفتيش في مدينة من مدن الأقاليم، ولما كان المفتش غير معروف فقد أخذ الموظفون مسافراً من المسافرين على أنه المفتش الموهوب الجانب، فأكرموا وفادته ومشوا بين يديه بالزلفى وأعطوه المال والهدايا، ولما رأى ذلك المسافر أنه قد أخذ منهم كل ما استطاع أخذه من المال فر هارباً؛ ويسدل الستار عقب إعلان إن المفتش الحقيقي قد وصل فعلاً!؛ وقد أحدثت هذه الملهاة ضجيجاً

كبيراً وأثارت من حنق الحكومة على مؤلفها ما اضطره إلى مغادرة روسيا إلى إيطاليا حيث أتم قصته الكبرى (الأنفس الميتة).

تعد هذه القصة الثانية من أعظم الآثار في أدب أوروباً جميعاً ولم تكن لها عقدة معينة أو حكاية غرام، وقد أتمها جوجول في عدة سنوات، وفيها سخر أشد السخرية من كل ما عده معيباً في الحياة الروسية، وتهزأ بمن شاء من الأشخاص الذين صور أمثلة لهم في قصته الكبرى، وقد نفذت عينها نفاذاً عجيباً إلى كل معيب شائن في جوانب تلك الحياة وإلى كل وضيع مرذول من صور الناس وأنماطهم، لم يغادر شيئاً من ذلك إلا أحصاه. . .

ولو أراد النقاد أن يعدوا عشرة كتب في فن القصة لها أثرها في توجيه هذا الفن، ولها خطرها فيما تقاس به رسالة هذا الفن لكان كتاب جوجول (الأنفس الميتة) أحد هذه الكتب العشرة بلا جدال، فهو فيما تواضع عليه نقدة الأدب أعظم ملحمة للضعة الآدمية في أدب العالم كله، وذلك حسب ما يفهم من معنى الملحمة كعمل فني، وليس كما قد يذهب إليه الذهن من معنى المعركة. فما في القصة معركة ما وإنما نقصد معنى الملحمة كما تسمى ملهاة دانتي المقدسة، أعنى أنها عمل أدبي شامل يحيط بكل شيء مما هو منه بسبب.

. .

وبطل هذه القصة التي هي في الواقع مجموعة فصول أقوى مثال للصعلوك الذي لا يكترث لشيء والذي لا يتأثم من شيء، والذي يرضى كل الرضاء عن أعماله جميعاً لا يشعر بأي أثر في نفسه مما يسميه الناس وازع الضمير ؛ وفكرة القصة الرئيسية التي تدور حولها حوادثها هي أن هذا الصعلوك المسمى شيشكوف قد اعتزم أن يشتري من ملاك الضياع من يموت من رقيق الأرض قبل أن يسجل في سجل الموتى اسمه، لكي يرهن هؤلاء للمصرف على أنهم أحياء ويربح من وراء ذلك ربحاً كبيراً؛ وينتقل من مالك إلى مالك يتواطأ معهم على الإقرار بوجود هؤلاء الرقيق، وفي أثناء ذلك يصف المؤلف حال هؤلاء التعساء الذين يقول عنهم إنهم لا يحيون كما يحيا الخلق وإنما يوجدون فحسب! وكان هؤلاء الرقيق يسمون في روسيا وقتذاك الأنفس وكان الواحد يسمى نفساً، فإذا سأل أحد الملاك صاحبه عن عدد رقيقه قال له كم نفساً تمتلك، ومن هنا جاء اسم القصة (الأنفس الميتة)؛ والقصة مليئة بتلك السخرية القاسية وذلك الضحك الشيطاني الذي يتميز به فن جوجول. . .

ونشر جوجول في نفس الوقت الذي نشر فيه (الأنفس الميتة) قصة كان لها أثرها في النفوس؛ وهي ثالثة ما أشرنا إليه من قصصه، ألا وهي قصة (العباءة) أو (المعطف) أو يؤدي معنى الرداء الخارجي الذي يلبس فوق الملابس جميعاً اتقاء للبرد، وخلاصة هذه القصة أن أحد الكتبة الفقراء وهو شيخ ضعيف كانت أعظم أمنية له أن يشتري معطفاً، فما زال على خصاصته يقتصد من ماله القليل حتى اشترى المعطف المنشود، ولكنه مُنى في أول يوم فرح فيه بمعطفه بفتية من صعاليك الشوارع سرقوا منه المعطف

فقضى نحبه من فرط غمه ويأسه، والقصة على بساطة موضوعها تصف البؤس والشقاء وسوء الحظ أقوى تصوير وأصدقه. . .

ولجوجول كما أسلفت القول غير هذا الذي ذكرت كثير من القصص الطويلة والقصيرة والمسرحيات والنبذ الوصفية وما إليها وإنما اخترت هذه القصص الثلاث لأنها أكثر صلة بما نريد بيانه وأعني به كيف عبر أدباء الروس بالفن عن ثورة نفوسهم المكبوتة

وهكذا كان بوشكين وجوجول ومن دار حولهما من النوابغ يلقون على الأفق الحالك في حكم نيقولا الأول خيوطاً من النور كانت لأنفس الأحرار أنساً وشفاء وعزاء. . .

بقيت بعد ذلك كلمة عن تيارين فكريين قوى ظهورهما في عهد نيقولا وأعني بهما المدرسة الشرقية والمدرسة الغربية، أو بعبارة أخرى الاتجاه نحو أوربا والإبقاء على سلافية روسيا. . .

وكانت المدرسة الشرقية أو السلافية تؤمن بان مدنية روسيا غير مدنية أوروبا، وأن على الروس أن يحذروا مادية الغرب الوضيعة وأن يعودوا إلى تلك الجماعات التعاونية التي أقامها السلاف الأقدمون في قرى روسيا؛ وكانت قادة هذه المدرسة يعتقدون أن بطرس الأكبر لم يخدم روسيا بقدر ما أساء إليها بمحاولته صبغها بالصبغة الأوروبية، وكذلك كان أنصار السلافية يعدون الغرب في طور انحلاله لأنه بعد عن الجانب الروحي من الحياة، ذلك الجانب الذي اتصفت به روسيا السلافية والذي يجب أن يعيده الروس اليوم سيرته الأولى فينعموا بالإيمان والمحبة والتعاون فيما بينهم، ثم يذيعوا هذه المبادئ حتى تشمل الإنسانية جميعاً فيكون ذلك رسالة روسيا إلى العالم.

أما أنصار المدرسة الغربية، فكانوا يعزون ما في روسيا من شقاء العيش وطغيان الحكام إلى عزلتها عن أوربا وفلسفة أوربا وعلم أوربا. فإذا أرادت روسيا أن تخرج مما هي فيه فعليها أن تأخذ بمدينة أوربا في كل شيء فهذا سبيلها الذي لا سبيل لها غيره.

ومهما يكن من خلاف بين المدرستين فقد أفادت روسيا من دفاع كل منها عن وجهتها، وكانت لها من خلافهما يقظة، وبخاصة لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على أمر جوهري وذلك أنه في أي الوضعين لا يرجى لروسيا خير إذا أسلم أمرها إلى رجل واحد يستبد فيها بالأمر، ويصرف شؤونها كما لو كانت ضيعة من ضياعه.

هذه لمحة في الحال الأدبية في روسيا حتى أواخر حكم نيقولا الأول أي حوالي سنة 1851 عندما بدا الفتى ليو تولستوي يتجه في جد إلى الأدب ليغدو بعد أمد غير بعيد أعظم كتاب القصة في القرن التاسع لا في روسيا وحدها بل في أوروبا جميعاً.

هجرته إلى القوقاز

كان لابد للفتى من هجرة إلى بلد ما، فقد ضاقت نفسه بيسنايا وبموسكو وببطرسبرج جميعاً، ومل حياته بين العبث والإسراف فيه والندم والركون إليه حتى لم يعد يطيق شيئا من هذا، بل إنه لم يعد يصبر حتى على التفكير فيه. . .

واتفق أن جاء من القوقاز أخوه الضابط نيقولا إلى يا سنايا في إجازة عيد الميلاد فنصح لأخيه نصحه في كثير مما كان يشغل باله، ومن ذلك أن يدع الزواج حتى يطمئن إلى ارتباطه برباط الحب ثم حبب إليه أن يصحبه إلى القوقاز فما أسرع ما أخذ ليو برأي أخيه وتأهب للرحيل. . . واتفقت الأسرة أن يصرف زوج أخته أمور ضياعه في غيابه وأن يدفع عنه ديونه وذلك على أن يقنع ليو بخمسين ومائة جنيه كل عام حتى يؤدي الدين كله، وقبل ليو هذا الشرط وسافر في صحبة أخيه. . .

ووقفت بهما العربة عند أول محطة على بعد أربعة عشر ميلا فما راعه إلا كلبه الأسود المحبوب قد أقبل يلهث من شدة الحر ومن سرعة العدو حتى لحق به، وعلم بعد ذلك أنه كسر لوحا من زجاج إحدى نوافذ الغرفة التي كان محبوسا بها وانطلق يعدو ليدركه لأنه لا يطيق أن يرحل عنه.

ويذكرنا هذا الرحيل برحيل (تشايلر هارولد) أو اللورد بيرون حين اضطر إلى مغادرة انجلترة إذ ضاق بها وضاقت به بعد أن أسرف على نفسه فيما أنكره المجتمع منه، وقد وجه بيرون الخطاب إلى كلبه في أول قصيدته التي وصف فيها رحلته يقول إنه لا يجد من يأسف على رحيله حتى كلبه هذا فلسوف ينساه وينكره حتى ليثب عليه ويعضه إن قدر له أوبة من غربته. .

كانت رحلة بهيجة سارة، فقد قطعا جانباً منها إلى استراخان في زورق على صفحة الفلجا، وقد عرجا على موسكو وقازان وقضيا بضعة أيام في كل من المدينتين، وكتب ليو من موسكو إلى عمته تاتيانا يخبرها في لهجة الفخر أنه استطاع أن يقهر نفسه حين زار ناحية الغجريات، ويصف لها مقدار ما بذل من مغالبة منه لنوازع نفسه حتى أمكنه أن ينتصر بعد جهد بالغ. . .

وفي قازان قابل تلك الفتاة التي عرفها منذ نحو خمسة أعوام صديقة لأخته ماري وأحس يومها بميل شديد نحوها وهي زنايدا مولستفوف، ولقد أحس أنه على الرغم من تلك الأعوام الخمسة لم يزل بها متعلقا. قال في يومياته بعد ذلك بشهرين (لم أفه بكلمة من كلمات الحب، ومع ذلك فقد كنت واثقا أنها كانت تدرك مشاعري، ولئن كانت بادلتني إياها فذلك لأنها كانت تفهمني. . كانت صلاتي بزنايدا يوم ذاك لا تعدو تلك المرحلة البريئة، مرحلة انجذاب روحين كل منهما نحو الأخرى؛ أيداخلك الشك في أني أحبك يا زنايدا، إن

كان ذلك فإني أسألك الصفح فإن الخطأ خطأي إذ كان على أن أؤكد لك ذلك بكلمة. . أتذكرين حديقة كبير القساوسة يا زنايدا وممرها الجانبي؟ كان على أثلة لساني ما أفصح به عما في نفس كما كان على لسانك، ولكن كان عليَّ أن أكون أنا البادىء؛ أتدرين لماذا فكرت ثم لم أقل شيئا؟ ذلك لأنني كنت من السعادة بحيث لم يبق ما أرغب فيه، وخشيت أن أفسد لا هناءتي وحدي بل هناءتنا. . وسيبقى هذا اللقاء أعز ذكرى إلى نفسي حتى نهاية حياتي).

غادر ليو قازان إلى القوقاز مستمتعاً بصحبة أخيه، مبتهج النفس بما تركه فيها لقاء زنايدا، مرتاحا إلى ما يهجس في خاطره من أنه انطلق من حياة العبث انطلاقا لا رجعة فيه؛ ويجد القارئ وصفا لهذه الحال النفسية في شخصية أولينين بطل قصة (القوزاق) التي كتبها بعد ذلك بقليل، وكان أولينين كذلك مسافراً قال (في مثل هذه الحال العقلية السعيدة التي يحدث فيها نفسه فجأة شاب يستشعر أخطاءه الماضية قائلا إن ذلك لم يكن حقيقياً، فكل ما حدث في الماضي كان عرضا عديم الأهمية، وإنه حتى ذلك الوقت لم يكن حاول محاولة جدية أن يعيش، ولكن حياة جديدة بدأت تتهيأ له أسبابها، حياة لا شيء فيها من خطأ ولا من ندم، فليس إلا السعادة. وكان من الأمور البينة أن تلك الأخطاء لن تعود بين الجبال ومساقط المياه والأخطار والشركسيات الحسان)

وجد المسير بهما جده حتى بلغا ستارى يورت في القوقاز وأقاما في خيمة أول الأمر، وأعجب ليو بمنظر الرواسي الشامخة من الجبال، وكان لا يفتأ يقلب عينيه فيها ويتأمل فيما يبعثه منظرها من رهبة في نفسه، وكتب إلى عمته تاتيانا يصف لها تلك الأطواد في نشوة وحماسة، ويشرح لها البيئة التي سوف يقضي في قراها قرابة ثلاثة أعوام؛ وإن المرء إذ يقرأ ما جاء في قصة (القوازاق) من وصف للجبال ليتملكه العجب من روعة وصفه، ومرد ذلك الوصف البليغ الساحر إلى معيشته سنين في سفوح هاتيك الجبال الشاهقة. . .

ولم يكد يمضي أسبوعان عليه في ستارى يورت حتى عاد إلى إحدى عاداته السيئة التي كم اعتزم أن يطلقها ألا وهي الميسر، فجلس يلعب ذات ليلة فخسر في هذه الجلسة خمسين وثمانمائة روبيل أو ما يساوي سبعة وعشرين ومائة من الجنيهات، وكدرت نفسه هذه الخسارة لا ريب، وكدرها كذلك عودته إلى هذا الذي طلب الهجرة ليتخلص منه وهو من أرذل نزعات نفسه؛ ولكن الندم عقب ذلك أخذ يتغلغل في أعماق نفسه. وآية ذلك أنه استطاع ألا يقرب الميسر بعد هذه الليلة ستة أشهر كاملة، كان يقضي فيها أوقات فراغه في الصيد والكتابة والقراءة (وتعقب حسان القوقاز).

ولفت إليه ببسالته القائد العام في تلك الجهة للجيش الروسي وذلك أثناء تطوعه ذات مرة في حملة على بعض القبائل، كانت مهمة ذلك الجيش هناك مطاردتها؛ وقد اقترح القائد أن يحلقه بالفرقة ليكون أحد رجالها؛ ووقع ذلك من نفسه موقعاً حسنا، ولعله تخيل لنفسه ما تخيله أولينين بطل قصته من البسالة والقوة، وحلم كما حلم أولينين بأن يكون قاهر القوازاق وبأن يعزى إليه وحده الفضل في تسكين القبائل الثائرة هناك.

وأرسل إلى تفليس ليمتحن هناك نوعا من الامتحان يهيئه النجاح فيه للالتحاق بالجيش، ورأى في تفليس ما يشبه الحياة في قازان فحن إلى حياة المدن بعد تلك الأشهر التي قضاها في القرى والأماكن البرية وأوشك أن يعقد النية على أن يعود أدرجه إلى موسكو، وصار يحس أنه يحيا في تلك القرى حياة أشبه ما تكون بالمنفى. . .

وظل في تفليس أياما يستمتع بمثل ما كان يستمتع به في موسكو أو في قازان، ويترقب بقلب نزوع وصبر فارغ نبأ إلحاقه بالفرقة الرابعة متطوعا فإن ذلك كفيل أن يخرجه من تردده ويجعله يركن إلى البقاء في القوقاز.

وتم له ما أراد فعاد إلى ستارى يورت، وهناك توثقت عرى الصداقة بينه وبين فتى يدعى سادو، وكانا يتعاونان في السراء والضراء ويطعمان معاً كلما واتتهما فرصة لذلك ويقتسمان المال بينهما ويتبادلان الهدايا، وقد أعجب ليو بصاحبه وما رأى من بسالته وجميل مودته وإخلاصه له ذلك الإخلاص الذي أدى به أكثر من مرة إلى أن يعرض نفسه للأخطار لينجي صاحبه؛ وطاب الفتى نفساً بهذه الصداقة وأحب من أجلها الحياة في القوقاز.

وكان سادو مقداماً لا يهاب شيئا، يهجم على قرى الأعداء فيأتي منها بما يبيعه وبذلك يحصل على المال فهو متلاف يبسط يده كل البسط وأبوه على ثرائه يضن عليه إلا بالقليل الذي لا ينقع غلته. . .

وكان على ليو أن يدافع عن سادو كما يدافع هذا عنه، ولذلك كان يتعرض لكثير من الخطر من أجله، حتى لقد أوشك ذات مرة أن يؤسر هو وصاحبه، ونجا مرة أخرى من الموت وهو على حافته إذا انفجرت قذيفة مدفع على مقربة منه.

ويعنينا من هذا ما نذكره عن حياته في القوقاز لصلته بفنه، فلسوف يصف هذه الحياة وصفاً يكسبه على حداثته ذيوع الصيت في دنيا القصة، ويضفي على عمله من الأصالة والروعة والدقة ما يسلكه وهو حدث في القلائل الأفذاذ.

كان أكثر ما يجد من الأنس في صحبة صديقه سادو وفي صحبة رجل آخر هو إبيشكا القوزاقي صاحب الكوخ الذي كان يقيم به، وذلك الذي برع في الصيد براعة عظيمة أو الذي برع في الحديث عن مقدرته ومهارته فيه، وعن أيام شبابه الأولى وكيف كان الغواني يأخذن عليه كل سبيل ويفتتن به كل الافتتان، ولقد جعل منه ليو صورة إروشكا في قصته (القوزاق) فبلغ في ذلك غاية الإبداع.

وكان الصيد من أحب ما يلهو به في ساعات فراغه، وقد كانت الأرض غنية بطلبته من الأرانب البرية والثعالب، وكان يصحبه إبيشكا إلى قرى وأماكن بعيدة في الجبال حيث كانت تحيط بهما المخاطر في كثير من الحالات. . .

وليته جعل للصيد كل فراغه، فلقد عاد إلى الميسر منذ سنة على الرغم من مغالبته نفسه ابتغاء الإقلاع عنه، وما استطاع أن يكف عنه إلا ستة أشهر بعد أن وقع في الشرك ولم يمض عليه في القوقاز أسبوعان؛ وما إن عاد إلى التفرج على إخوانه الضباط وهم يلعبون حتى غلبه حب اللعب فأقبل عليه إقبال النهم الذي حيل بينه زمناً وبين الطعام، ففي كتاب منه إلى عمته تاتيانا في شهر يناير سنة 1852 أخذ يقص عليها كيف عاد إلى الميسر وكيف لحقته الخسائر من كل فج! وظل هذا شأنه طول تلك السنة والتي تلتها حتى عاوده ندمه وضيقه.

أما عن جانب الجد من حياته في القوقاز، فإنه في الجيش قد أبدى من البسالة في مواطن كثيرة ما استحق به صليب سان جورج للبطولة، ولكنه لم يحزه فعلا نظراً لعجزه عن تقديم شهادات وأوراق خاصة كان لابد أن يقدمها من يحظى بهذا الإنعام. . .

وكان كما سلفت الإشارة إليه قد أخذ يكتب منذ سنة 1851 وفي شهر يوليو سنة 1852 أتم كتابه (عهد الطفولة) باكورة فنه وخطوته الأولى صوب المجد وذهاب الصيت وأرسلها بإمضاء ل. ن. إلى مجلة شهيرة كانت تسمى (المعاصر) وكان يصدرها رجلان من أعلام الأدب وقتئذ وهما نكراسوف وبانييف. . .

وظل ليو شهرين ينتظر رداً من المجلة وهو يسلم نفسه إلى الأمل الحلو تارة وإلى اليأس المرير تارة حتى جاءه كتاب من نكراسوف ينبئه فيه بقبول القصة للنشر، ولكن على ألا يدفع لصاحبها أجراً حسب ما تعارف عليه أصحاب المجلات الأدبية يومئذ إذ كانوا لا يدفعون أجراً لكاتب غير معروف على أول شيء يقبل منه للنشر. . .

وفرح تولستوي فرحا عظيما بالنشر في ذاته فهذه أمنيته، أما الأجر فما خطر بباله قط؛ وازداد فرحا إذ جاءه كتاب ثان من نكراسوف يقول فيه إنه ازداد رضاء عن القصة وهو يصححها للطبع وأنه يعتقد أن مؤلفها ممن وهبوا المقدرة، وإنه لأمر ذو أهمية أن يعمل المؤلف ذلك في بداية عهده بالكتابة. . .

ونشرت القصة في عدد أكتوبر فسرعان ما حظيت بثناء أهل الفن جميعا وفي مقدمتهم تُرجنيف ذلك الذي كان اسمه من أشهر الأسماء يومئذ في فن القصة، ومنهم دستويفيسكي وكان في منفاه بسيبيريا فكتب إلى أحد أصدقائه يسأله من يكون ل. ن. هذا صاحب تلك القصة. . .

ولم يكن بالأمر الهين أن يلتفت ترجنيف ودستويفسكي إلى هذا الكتاب فقد خلف هذان الكاتبان جوجول في زعامة القصة واغتدى اسماهما أرفع الأسماء في الجيل الذي أعقب جيل جوجول. . .

وطابت نفس الفتى ليو نيقولا تولستوي وابتهج فؤاده بهذا النجاح، وإن كان ضايقه من الناشر أنه غير عنوان الكتاب فجعله (تاريخ عهد طفولتي) بدلا من عنوانه الأصلي (عهد الطفولة) وذلك أن الكاتب كما ذكر في أكثر من موضع لم يقصد بكتابه أن يكون ترجمة منه لنفسه. . . وكذلك ضايقه أن الرقيب تناول بالحذف أو التغيير بعض عبارات الكتاب.

أخذت تتفتح الأكمام في هذا الكتاب عن عبقرية الكاتب الناشئ الذي لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره، وبدأت تنجلي خصائص فنه وتتضح مواهبه وفي مقدمة تلك المواهب إحساسه المرهف وقلبه الشاعر

وذكاؤه الحاد وبصيرته النافذة إلى أعماق الأشياء المحيطة بتفاصيلها ودقائقها وروحه الدائبة المتوثبة التي لا تعرف سأماً وحيويته الكفرية التي لا تقل عن حيويته البدنية.

أما فنه فكان قوامه الأصالة والصدق والسمو وتجنب ما لا عائدة منه في التعبير والتصوير، وكان يجمع فيه بين عاطفة الفنان ومهارة الصانع وتفطنه إلى كنه ما في يده؛ وكان يقبل على الكتابة في تحمس شديد وإخلاص بالغ، ثم يطيل النظر فيما يكتب فيمحو ويثبت ويحذف ويضيف حتى يستقر على وضع ترتاح نفسه إليه ويقرأ ما يكتبه على من يدخل عليه يتبين أثره في نفسه، كما كان ينفعل انفعالا شديداً إذ يتلو لنفسه ما كتب فتدمع عيناه ويهتز بدنه وترتعش يداه، ثم يشيع السرور في كيانه وتستقر الطمأنينة في وجدانه.

كتب في مذكراته في هذه السن المبكرة يقول في أوائل سنة 1851 (إن الخيال هو مرآة الطبيعة، مرآة نحملها في أنفسنا وفي هذه المرآة تصور الطبيعة، وأجمل الخيال هو أصفي المرايا وأصدقها وتلك هي التي نسميها العبقرية. . إن العبقرية لا تخلق وإنما هي تعكس ما ترى) وقال في موضع آخر (إن الكتابة الأدبية ينبغي أن تكون أغنية منبعثة من صميم نفس الكاتب).

لم يكن كتابه (عهد الطفولة) ترجمة لحياته، ولم يكن كذلك عملا خيالياً بحتاً، وإنما كان وسطاً بين هذا وذاك، ولعله كان إلى وصف حياته وبيئته الأولى أقرب. قالت زوجته فيما بعد (كانت كل الصور فيه مشتقة من أعضاء أسرته، وكان الإسكندر إسلنيف هو صورة جدي لأمي).

ولم يعن تولستوي في كتابه هذا بالحوادث في ذاتها فليس فيه إلا الحياة العادية التي يحياها الناس كل يوم، وإنما عنى بإبراز المشاعر والأحاسيس التي تثيرها الحوادث فيما صور من الأشخاص فكان عمله أقرب إلى التحليل النفسي الذي سوف تمتاز به القصة الروسية عما قريب بوجه عام وفي فن دستويفسكي بوجه خاص.

ولقد وفق تولستوي توفيقاً كبيراً في تصوير الخلجات النفسية في كتابه هذا حتى ما يظن قارئه (إن لم يكن يعرف) أنه عمل مبتدئ، هذا إلى دقة اللمسة الفنية والبراعة في عرض الصور مع وضوحها وخلق المناسبات، واختيار ما يحتاج إليه السياق في غير استطراد ممل أو على حد تعبيره (استبعاد كل ما لا ضرورة له وكل ما هو سطحي أو ضعيف).

وللكتاب أهمية من ناحية أخرى إذ هو يرينا تأثره إلى حد ما بروسو وستندال ودكنز وبخاصة في قصة دافيد كوبر فيلد التي هي في الواقع حياة دكنز في بيئته الأولى مقنعة كما شاء القصصي العظيم، وكانت هذه القصة كما ذكرنا تنشر تباعاً يومئذ مترجمة إلى الروسية في مجلة المعاصر. . .

وحفزه نجاحه في كتابه الأول إلى أن يكتب (عهد اليفاعة) فأقبل على ذلك في نشاط وأمل وغبطة؛ وكان أثناء كتابته (عهد الطفولة) قد كتب بعض الأقاصيص عن حياته في الجندية ومنها (قطع الغابة) و (الغارة)، وقد أرسل هذه الأخيرة إلى مجلة (المعاصر) فنشرتها وقد اطمأنت إلى القصصي الشاب؛ ولكن

الرقيب شوه بعض أجزاء هذه الأقصوصة حتى لقد اشتكى مؤلفها قائلا (لقد قضى عليها الرقيب، فقد محا كل ما كان حسناً فيها أو بدله).

وأقبل القصصي الشاب على مذكرته يثبت فيها ما يعتزم كتابته من قصص؛ وكلما طرأ على خاطره موضوع يصلح لقصة عجل بإثباته ودون ما يعن له من ملاحظات ليعود إليها في حينها، وكلما أعجبته حادثة أو شخصية ممن يحيطون به كتبها مخافة أن ينساها ليجدها فيما بعد حين يأخذ في بناء قصصه وهكذا بث نجاحه الأول في نفسه كثيراً من الأمل والنشوة. . .

أخذ يزداد سأم الفتى من القوقاز ومن حياة الجندية يوماً بعد يوم، منذ أن ذهبت عن تلك الحياة جدتها؛ واشتد ضيقه في شهر أكتوبر سنة 1852 حتى إنه ليكتب في يومياته إنه يعد سني نفيه من ذلك التاريخ، ويقول فيما يُشعر بالأسى إنه لن يستطيع أن يعتزل خدمة الجيش إلا سنة 1855 (وعندئذ أكون في السابعة والعشرين من عمري، وما أكثر ما أكون من الكبر في هذا السن!. . . ثلاث سنوات أخرى في خدمة الجيش منذ اليوم؟ إن عليّ أن أقضيها فيما يجدي).

وفي مستهل سنة 1853 يقول (يا للناس من أغبياء! إنهم جميعاً وبخاصة أخي لا يدعون الخمر، وهذا شيء أراه كريها. . . إن الحرب أمر باطل. . . هي شر لا ريب حتى إن الذين يخوضون غمارها ليحاولون تلقاءها أن يخنقوا ضمائرهم. أحق ما أنا فاعل؟ أرشدني يا إلهي واغفر لي إن كنت أعمل باطلا). . .

والحق إنه لولا ما كان يصادفه في القوقاز مما يكون مادة طريفة لفنه من الناس والحوادث والمناظر، ما استطاع صبراً على العيش هناك، ولا أطاق حياة الجندية وما فيها من خشونة وما كانت تبعثه في نفس كنفسه من سأم وضيق بأيامها المتكررة المتشابهة. . .

وبدأ يشكو أسقاماً في معدته وأمعائه وكان مرد ذلك إلى ما اعتاده من إسراف في الطعام، فقد كان من مرذول عاداته نهمه في تناول أنواع من الأطعمة كان يحبها كالفطائر والمثلجات وأصناف الحلوى، وكان لا يستطيع أن يصد نفسه عنها إذا تهيأت له، أو يفطمها إذا غابت عنه، وإنما كان يسعى إليها سعياً حتى يظفر منها بأوفر نصيب وإن مسه الضر؛ وكان لا يكترث لنصح أو يشفق من أذى اتكالا على ما يحس من قوة بنيته وشدة حيوانيته، ورغبة منه في تعويض ما يبذله من طاقة في تلبية نداء جسده . .؛ ولكن ذلك النهم قد أضر بمعدته ضرراً أخذ يزداد منذ كان في القوقاز وسوف يتمكن منها حتى ليستعصي على العلاج حين يتقدم به العمر. . .

وكذلك أخذ يشكو من الروماتزم والحمى والرعاف والتهاب الحلق في كثير من الأحيان، ونجده يكتب إلى عمته تاتيانا ذات مرة يقول لها (لا تظني أنني أخفي عنك شيئا. إني وإن كنت متين البنية أعاني دائما ضعف الصحة).

وفي شهر مارس سنة 1853 يكتب في يومياته قائلا (إن الخدمة في القوقاز لم تجر عليَّ إلا المصاعب والكسل ومعرفة غير الأخيار. . . إنه ينبغي أن أخلص منها أسرع ما أستطيع. . . لقد فقدت ما كان معي من المال جميعاً، ولا زلت مديناً بثمانين من الروبلات لأوجولين وستة ليانوفتش وخمسين

لسكوفنين وثمان وسبعين لقنسطنطينوف؛ وتبلغ جميعاً أربع عشرة ومائتين، وقد أنفقت فضلا عنها ثلاثين ومائتين كانت كل ما أملك. . إن ذلك لسيئ).

قرأ ليو كثيراً في القوقاز وهو منذ حداثته لا يسلو الكتب مهما صرفته عنها أهواء شبابه؛ فإذا عاد إليها أقبل يقرؤها في جد وعناية وقراءة تدبر واستمتاع، ولم يتفه كتاب مما كان يصدر يوم ذاك في روسيا أو في أوربا، كذلك لم تفته صحيفة أدبية تعنى بألوان الأدب المعاصر وتهتم بنقده، وكان في مقدمة تلك الصحف مجلة (المعاصر) التي نشرت له أول آثاره. . .

وكان لترجنيف جانب كبير من اهتمامه، وكان ترجنيف الذي يكبره كما أسلفنا بعشرة أعوام قد نشر سنة 1947 أول كتاب له وهو (مذكرات رجل صيد) الذي سبق أن أشرنا إليه، فكان ليو يعيد قراءته بين الحين والحين؛ ولعل ما استمتع به ترجنيف من ذهاب الصيت بكتابه الأول هذا قد ألقى في نفس ليو تولستوي أحلام المجد الأدبي وبخاصةً بعد أن صادف كتابه (عهد الطفولة) ما أشرنا إليه من نجاح.

وكان لجوجول كذلك منزلة عظيمة في نفس تولستوي، فكان يطيل التأمل في قصة (الأنفس الميتة) في قصته الفكهة (في). . .

ولم يسه تولستوي عن الأدب الأوربي فكان يقرأ آثار أعلامه جميعاً، وكان يتتبع ما ينشر دكنز في شغف كبير ويقدمه على كل قصصي سواء؛ وكذلك كان عظيم الإعجاب بالكاتب الإنجليزي ستيرن الذي ذكرنا اسمه قبل فيمن ذكرنا ممن قرأ الفتى آثارهم؛ كان ستيرن من رجال الدين ولد سنة 1713 وتوفي سنة 1768 فهو من أعلام القرن الخامس عشر وقد اشتغل بالأدب، وامتازت مؤلفاته بروح الفكاهة والعاطفة، وبلغ في قوة خلق الأشخاص وتصويرهم مالا يبلغه إلا الأفذاذ القلائل، فكان لآثاره ميزة الأصالة والنبوغ، وقد نشر قبيل وفاته أشهر كتبه وهو (الرحلة العاطفية)، وقد كان تولستوي شديد التأثر عظيم الانجذاب نحو هذا الكتاب؛ يضعه في مستوى آثار روسو من حيث قيمته في ذاته ومن حيث أثره في نفسه. . .

وكثيراً ما كان الفتى يطيل التأمل في ساعات فراغه، أو عقب قرائه كتاباً من كتبه، وكثيراً ما كان يثبت تأملاته في كراسته فكان لهذه الكراسة بذلك خطرها كمصدر من مصادر تاريخ حياته.

وكان أول ما تأمل الفتى في الدين ولما يمض عليه في القوقاز غير أيام، ولم تكن هذه أول مرة يتجه فيها تأمله هذا الاتجاه، فقد سبقتها مرات ومرات؛ وقد أشرنا قبل إلى ما ذكره في مستهل كتابه (اعترافاتي) عن ذلك الصبي الذي تحدث إليه ذات مرة وهو في نحو العاشرة عن الله ووجوده، وكيف تلقى ذلك الحديث في اهتمام وأفضى به إلى أخوته. . . ومما ذكره كذلك في مستهل ذلك الكتاب قوله (لقد عمدت ونشأت على العقيدة المسيحية الأورثوذكسية؛ وقد عملت هذه العقيدة في طفولتي وطول أيام يفاعتي وشبابي؛ ولكني عندما تركت الجامعة وأنا يومئذ في الثامنة عشرة لم أعد أصدق شيئاً مما علمته. . . وقد ذهبت المعتقدات الدينية التي علمتها في صغري؛ ونظراً لأني منذ سن الخامسة عشرة بدأت أقرأ الآثار الفلسفية، فإن رفضي هذه المعتقدات كان أمراً شعورياً في سن مبكرة جداً؛ فمنذ سن السادسة عشر انقطع ذهابي إلى الكنيسة وانقطع صومي؛ ولم أصدق ما لقنت في طفولتي ولكني كنت أصدق شيئاً ما؛ أما ما هو ذلك

الشيء فما كنت أستطيع وقتها أن أقول، لقد صدقت بالله أو على الأصح إني لم أنكر الله، ولكني لم أستطع أن أقول أي إله هذا، وكذلك لم أنكر المسيح ولا تعاليمه، ولكم مم كانت تتألف تلك التعاليم؛ ذلك أيضاً ما لم أكن أستطيع أن أقوله. . .

وإذا رجعت إلى تلك الحقبة من عمري أرى الآن في وضوح إن إيماني، إيماني الحقيقي الذي لم يكن لي غيره، ذلك الذي كان يحفز حياتي بصرف النظر عن غرائزي الحيوانية هو عقيدتي في بلوغ الكمال النفسي، ولكن مم يتألف هذا الكمال وما غرضه؟ ذلك ما لم أستطع أن أبينه، لقد حاولت أن أكمل نفسي عقلياً، فدرست كل ما استطعت أن أدرس، كل شيء ألقته الحياة في طريقي، وحاولت أن أكمل إرادتي فوضعت قواعد أخذت نفسي بإتباعها، وكملت نفسي من ناحية البدن قد دربت قوتي ونشاطي بكافة أنواع التمرينات، وعودت نفسي التحمل والصبر بكافة ضروب التقشف؛ واعتبرت كل أولئك وسائلي نحو الكمال؛ وكان أول ما اتجهت إليه الكمال الأدبي ثم أعقب ذلك وحل محله الكمال من جميع الوجوه، أو الرغبة في أن أكون أحسن حالاً، لا في نظري فحسب ولا عند الله وحده، ولكن في نظر غيري من الناس. . . وسرعان ما اتجهت محاولاتي بعد ذلك إلى رغبة أخرى هي أن أكون أقوى من غيري وأبعد منهم صوتاً، وأعظم خطراً وأكثر ثراء. . .

هذا هو مبلغ اهتمام الفتى بالدين وكل ما هو من الدين بسبب منذ حداثته، أما اهتمامه به في القوقاز فنجد شاهداً عليه فيما أثبته هناك من تأملاته ومنها قوله بعد أن ذكر إنه لم ينل ليلته بسبب صلاته ونسكه لله (إذا أريد بالصلاة إنها استغفار أو شكران فإني إذاً لم أكن أصلي؛ بل إن رغبة كانت تتملكني نحو شيء طيب سام. أما عن كنه ذلك الشيء فذلك ما لا أستطيع تفسيره، ولو إنني أشعر شعوراً تاماً ماذا يكون ذلك الذي رغبت فيه؛ إن الذي رغبت فيه هو أن أذوب فأمتزج بذلك الجهور المحيط بكل شيء وأن أستغفره عن آثامي. . . لا، ليس هذا ما رغبت فيه لأني شعرت إذ منحني هذه اللحظة المباركة إنه بهذا منحني كذلك المغفرة).

والذي يستخلص مما كتبه تولستوي حتى هذه السن إنه لم يفقد الإيمان لحظة بقوة مطلقة في هذا الوجود، وكان مرد إيمانه إلى عاطفته وإن كان يشعر إنه لا يستطيع أن يصالح عليها عقله ومنطقه، فلقد كان شديد الشك في صورة العقيدة كما تضعها الكنيسة الأورثوذكسية الروسية، ولذلك عظم الصراع بين عاطفته وعقله. . . وتراه يتساءل ذات مرة في دفتره معتمداً على العقل والقياس قائلاً: حتى ولو إن الجسم والروح شيئان، وإن الجسم يلحقه الفناء، فماذا في ذلك من البرهان على فناء الروح؟ لقد رأيت الجسم يموت، وعلى ذلك أستخلص إن جسمي أنا سوف يموت، ولكن ليس في ما يريني إن روحي سوف تموت، وعلى ذلك فبناء على ما يقوم في فكري أقرر إنها خالدة).

وقال عن الصلاة في موضع آخر (هل الصلاة لازمة؟ وهل هي ذات فائدة؟ إن التجربة وحدها هي التي ترينا مدى ما يكون في ذلك من اقتناع. إني أصلي هكذا. رب نجني من السوء ومن الغواية أن أفعل

السوء، وهب لي الخير أو هب لي القدرة على أن أعمل صالحاً؛ وسواء أكان خيراً أم كان شراً ما أعمل فإن مشيئتك هي النافذة).

وعاد يبحث عن الله في قوله (هل لي أن أنجح نجاحاً لأمرية فيه فأكون عن الله واضحة وضوح فكرتي عن الخير؟ لقد باتت هذه الرغبة أقوى رغابي!

إن فكرة الإنسان عن الله هي وليدة تغطية إلى ضعفه هو. . . ولم يقنعني بوجوده بصلتنا به شيء أقوى من هذه الفكرة: ألا وهي أن كل مخلوق قد وهب من المسكنة ما يتفق مع ما يرغب فيه من مطالب، لا شيء أكثر من ذلك ولا شيء أقل؛ ولأي غرض وهب الإنسان قوة إدراك مثل هذه المسائل وهي العلة الأولى والأبد واللانهاية والقوة المطلقة؟ إن المقدمة فيما أتحدث عنه هي فروض تؤيدها علامات، وإن الإيمان حسب تقدم المرء يتمم صحة هذه الفروض).

وتشتد حيرته بعد ذلك فيقول: إني عاجز عن أن أثبت لنفسي وجود الله، أو حتى عن إيجاد قرينة مقنعة به؛ كما أني لست أرى ثمة ضرورة حتمية لهذا الإدراك، إنه لأيسر وأبسط أن نتخيل الوجود الأبدي للكون بنظامه العجيب الذي لا يمكن تصور مداه، من أن نتخيل وجود خالق له. إن تطلع الجسم والروح إلى السعادة هو السبيل الوحيدة إلى تفهم أسرار الحياة، وإذا تصادمت نوازع الجسم ونوازع الروح فيجب أن تهيمن نوازع الروح لأن الروح خالدة كالسعادة التي تنتجها. . . وإن تحقيق السعادة هو السبيل لتقدم الروح ورقيها. . . إني لست أفهم ضرورة وجود الله، ولكني أومن به وأصلي له كي يعنيني على أن أدركه).

وتنطوي سنوات كثيرة قبل أن يغير تولستوي ما أثبته في كراسته في نوفمبر سنة 1852 وهو قوله (إني أومن بإله واحد لا تدركه الأبصار وأومن بخلود الروح وأومن بالجزاء على أعمالنا؛ وما يضيرني أني لست أفهم خفايا الثالوث ومولد أبن الله؟ إني أجل عقيدة آبائي ولست أجحدها).

ويتأمل الفتى غير الدين في أمر يتصل بالأخلاق فيقول (إن الضمير خير رائد لنا وخير ما نعول عليه من هاد، ولكني ما هي الشواهد التي بها نميز صوت الضمير من بين الأصوات الكثيرة التي تنبعث في أنفسنا، على إنه الصوت الوحيد الحق؟ ذلك لأن الغرور يتكلم بنفس القوة. . . إن الرجل الذي يكون غرضه في الحياة سعادة نفسه هو رجل سوء؛ وإن الذي يكون غرضه حسن رأى الناس فيه رجل ضعيف؛ وذلك الذي يجعل غرضه إسعاد الآخرين رجل خير؛ ولكن الذي يجعل غرضه وجه الله هو رجل عظيم. . . إن الشر في رأي يتكون من إتباع السوء تجاه الآخرين والخير كامن في محبة الخير لهم؛ بهذا يتحدث الضمير أبداً؛ وإن غرض الحياة لهو الخير وهو عاطفة موروثة في النفس، ورأى أن الوسيلة لنعيش عيشة طيبة هي معرفة الخير والشر. . . وأنا لن نكون أخياراً إلا عندما توجه جميع قوانا دائماً نحو هذا الغرض).

زواج تولستوي

كان الطبيب بيرز يعيش وأسرته عيشة راضية في موسكو منذ أن تزوج سنة 1742 وهو في الرابعة والثلاثين من عمره بالآنسة ليوبوف إسلافين، وكانت فتاة في السادسة عشرة. . .

كان هذا الطبيب الألماني الأصل موفور الرزق بما كان يكسب من حرفته ومن وظيفته في بلاد القيصر، وإن لم يك من ذوي الثراء الواسع؛ وكان له ولأسرته مكانة اجتماعية مردها إلى منصبه الرسمي الذي حصل فيه على لقب النبل جزاءاً على خدماته في القصر الإمبراطوري. . .

وقد أنجبت الزوجة الفتية لبعلها حتى سنة 1862 ثلاث عشرة عاش منهم ثمانية، ومن هؤلاء ثلاث بنات كانت كبراهن واسمها إليزابيث في التاسعة عشرة، ويليها سوفيا وهي دونها بسنة، ثم تاتيانا وهي دون سوفيا بسنتين. . .

ولم تكن زوجة الطبيب بيرز إلا تلك البنت التي أحبها تولستوي وهو طفل، والتي أدت به الغيرة، ذات يوم، إلى أن يدفعها من شرفة فأصابها بالعرج زمناً غير قصير؛ لم تكن إلا إسلنيف الصغيرة التي عاشت في كنف أبيه، وقد ولدتها أمها لرجل يدعى الاسكندر إسلنيف عاشت معه بعد أن هجرت زوجها ولم تستطع أن تحصل منه على الطلاق.

وقد تعلم البنات على أيدي معلمين ومعلمات من ألمان وفرنسيين، وكان أبوهن يعدهن ليكسبن قوتهن بعملهن، ولذلك كن يتعلمن ليكن معلمات. . .

وقرأ البنات، وبخاصة سوفيا، كثيراً من الكتب. وكان لقصة ترجنيف الآباء والأبناء أثر عظيم في نفوسهن، وقد اشتد عطفهن على بطل القصة بازاروف.

وفي ربيع سنة 1861 نجحت إليزابيث وصوفيا في امتحان تبيح لهما الالتحاق بجامعة موسكو.

وكان البنات في غير أوقات الدرس يخطن ويطرزن وينظفن المنزل ويقمن على مختلف شؤونه، ويعلمن اخوتهن الصغار؛ ولم يكن يكدر عليهن صفو حياتهن إلا ما يكون أحياناً من غضب أبيهن، ولكنهن لم يرين أمهن الصبور الهادئة كيف تحتال بكل حيلة لتفتأ غضبه. فأثر ذلك فيهن أثراً حميداً.

كانت إليزابيث كبرى البنات فتاة طويلة القامة، ساحرة العينين، في ملامحها كثير من الجد والسكون؛ وكانت هادة باردة الطبع، قليلة النشاط نوعاً ما؛ وكانت أعمال البيت تضايقها وتثير نفسها الاشمئزاز، ولعل مرد ذلك إلى كسلها والى ورغبتها في القراءة؛ فكثيراً ما كان يرى في يدها كتاب، لا تكاد تفرغ من عمل حتى تعود إليه. . .

وكانت تانيا صغراهن على نقيض إليزابيث، فتاة لعوبا مرحة لا تفتأ تثب هنا وهناك حتى لتملأ البيت كله بضحكها وصوتها الساحر الجميل. وكانت تسمى في البيت (الشيطانة الصغيرة)، وكان لها ولع

بالموسيقى، وكانت متقدة العاطفة؛ تملأ قلبها حرارة الشباب، تحب صاحباتها فتستغرق في الحب، ولا تني تظهر لكل من يراها إعجاباً بنفسها وفرط إحساسها بذاتها.

وكانت وسطاهن صوفيا، أو سونيا كما كانت تسمى في البيت، وسطاً بين أختيها: تميل إلى تاتيانا وتحب مرحها وتنكر من إليزابيث سكونها وانطواءها على نفسها.

وكانت سونيا موفورة العافية، نشطة متوردة الوجنتين، براقة العينين؛ وكانت ذات جمال وفتنة وبخاصة عيناها الواسعتان الرماديتان. . .

ولئن كانت تحب صوفيا مرح أختها تاتيانا، إلا أنها كانت تحس أبداً أن هاجساً خفياً لا تدريه ولا تنكره يوحي إليها شيئاً من الحزن المبهم الذي يشوب مرحها دائماً، فلا تحس سروراً إلا أحست معه شيئاً من الحزن؛ كتبت لتاتيانا ذات مرة تقول (إن تلك الموهبة التي تحسدين عليها وهي الاستمتاع بكل شيء وبكل شخص بارزة فيك كل البروز، أما أنا فعلى عكس ذلك، إذ أجد ثمة شيئاً حزيناً في كل مرح وكل سعادة).

وكانت سونيا رحيمة بأخوتها، تؤدي عمل البيت في غير ضجر أو كلال؛ وكانت مولعة بالأدب والتصوير الموسيقي؛ وقد احتفظت منذ الحادية عشرة بدفتر تثبت فيه ملاحظاتها؛ وقد جاء فيه عن قراءتها قولها (لقد أحدث كل من (عهد الطفولة لتولستوي ودافيد كوبر فيلد لدكنزي في نفسي أعظم الأثر، ولقد بكيت حين فرغت من قراءة كوبر فيلد لأني سوف أفترق عن أولئك الأشخاص الذين باتوا أعزاء إلى قلبي).

وكان يغشى بيت بيرز كثير من الأضياف، وبخاصة في يومي السبت والأحد، وكانت بنات الطبيب زينة الدار، وكانت أمهن شديدة الرقابة عليهن تحدجهن حدج الملامة أمام الضيوف، أو تنصح لهن بكلماتها إذا خلت إليهن.

وأخذ البنات يغشين المجتمعات ويشهدن حفلات الرقص ويشاركن فيها، وقد ذهب لهن صيت في الجمال والظرف والرشاقة وحسن الذوق.

وكان أول من أعجب بسونيا معلمها الشاب، ولكنها كانت لا تكترث له، ولا تعبأ بتنهداته، وبينما كان يعينها على نقل مقعد إذ أمسك بيدها وقبلها، فصاحت به كيف تجرؤ على ذلك؟ ثم أرادت أن تريه مدى احتقارها إياه فمسحت بمنديلها موضع شفتيه من يدها؛ ثم إنها أخبرت أمها بما فعل فلم تعفها من اللوم قائلة (لم لا تسلكين مسلك أختك إليزابيث من الجد والاحتشام) وأبعد المعلم المسكين عن البيت. . .

وأعجب بها بعده ضابط شاب، وكان ينتمي إلى أسرة غنية يدعى بولفانوف، وأحست سونيا انجذاباً نحوه، ولما قبل يديها ذات مرة لم تغضب ولم تشمئز، ولكنها أحست النشوة في هيكلها كله وباتت تتوقعه تحلم. . .

ولما هم بالرحيل صارحها برغبته في أن يتزوجها، وجعل لها الخيار أن تعدل عن رضائها إذا رضيت، وذلك إذا اضطرته ظروف الحياة أن يغيب عنها. . . وأخذ أهلها هذا على أنه بعض عبث الشباب. . .

كانت أول زيارة ذات بال من جانب تولستوي لأسرة بيرز سنة 1856، وقد أشرنا إلى هذه الزيارة من قبل، وقد أعدت المائدة له ولمن كان معه من الضيوف إليزابيث أوليزا كما كانت تدعى وأختها سونيا،

وكانتا يومئذ طفلتين فلاعبهما تولستوي وضاحكهما وجلس بعد الطعام يقص عليهما القصص من سباستبول وما كان من أنباء الحرب، وكانتا قد قرأتا (عهد الطفولة) و (عهد الشباب) وسرهما ما جاء في الكتابين عن جدهما لأمهما وقد كان كما ذكرنا صديقاً لأبيه. . . وأحست البنتان سروراً عظيماً لجلوسهما بين يدي الكاتب النابه، وداخل تولستوي السرور مما أحس في الأسرة كلها من هناءة وأعجب بالبنتين وأختهما الصغيرة وما أشعنه حولهن من مسرة. . ولقد أسرعت سونيا بعد رحيله إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه فربطت رجله شريطاً لتعرفه. .

وفي سنة 1861 بعد عودته من رحلته الثانية إلى أوربا، زار تولستوي أسرة بيرز، فأعجبه ما رأى من تغير البنات فقد غدون آنسات يغشين المجتمعات ويأخذن زينتهن في كل مجتمع؛ وتهفو إليهن أفئدة الشباب. . .

وتحدث إلى ليزا حديثاً في الأدب والدين وأفاض في الكلام عن مدرسته، وأوحى إليها أن تكتب شيئاً عن محمد النبي العربي وعن مارتن لوثر؛ وجلس مع سونيا إلى البيان، ولعب معها الشطرنج؛ وعابث تانيا وضاحكها وقص عليها من قصصه. . .

ولم يصرفه اهتمامه بمدرسته عن أسرة بيرز فأكثر من زيارتها، ورفعت الكلفة بينه وبينهم فكان يأتي إليهم في أي وقت وكأنه واحد منهم، وألفه البنات وألفهن، وكن يشرن إليه بقولهن (الكونت) وألفه كذلك خدم الدار وبات يحبه ويأنس بلقائه كل من يراه. . .

وتحدث الناس أنه عما قريب سوف يخطب ليزا إلى أهلها، فقد قيل إنه ذكر لأخته مرة أنه تزوج يوماً ما فستكون عروسه من آل بيرز. . .

وبلغ حديث الناس آل بيرز فسرهم ذلك أبلغ السرور، ففي زعمهم أن ليزا خير من تصلح زوجة للكونت، وبات الأبوان يرتقبان الخطبة، وسمعت بذلك ليزا فزادت من عنايتها بمظهرها، وباتت تحلم أحلام الحب والسعادة وفي نفسها عن (الكونت) أنها قد شغفته حباً. . .

ولكن تولستوي كان لا يحس في نفسه أنه يحبها، فقد جاء في مذكراته في شهر مايو سنة 1861 قوله (قضيت يوماً بهيجاً عند آل بيرز، يجب ألا أقدم على زواج ليزا) وقال في سبتمبر (أن إليزابيث بيرز تغريني، ولكني لن أدع ذلك يحدث، فإن مجرد الإغراء الذي لا يصحبه أي شعور ما غير مجد).

وأحس أن سونيا تزداد كل يوم قرباً إلى قلبه، كما كانت تزداد حسناً، وأحست الفتاة زيادة اهتمامه بها، وكان صاحبها بوليفانوف قد غاب عنها غيبة تشبه القطيعة، وكانت تتوجد أحياناً، حتى لتجهش إذا خلت إلى نفسها. ولما رأت إقبال تولستوي عليها أحست مع حسرتها على صاحبها وحيرتها من مسلك الكونت، وباتت تسأل نفسها: أهو حقاً يحبها؟ ثم لا تلبث أن ترى أنها واهمة فتذكر بوليفانوف، ولكنها لا تكاد تلقى تولستوي حتى تملأ نفسها الحيرة.

وعرج تولستوي على موسكو في صيف سنة 1862 وهو في طريقه إلى سمارا، فزار آل بيرز؛ وكانت سونيا يومئذ تميل بخيالها إلى تولستوي، ولا تكاد تذكر بوليفانوف، وكان يحس الكونت نحوها أن قد أخذ يمس قلبه الحب.

ولما قص تولستوي على الأسرة كيف اضطر إلى بيع قصته قبل أن يتمها أو يهذبها ليؤدي بثمنها دينه بعد خسارة في الميسر، لم تقو سونيا على حبس دموعها رثاء له وتألماً من مسلكه. ولما رحل عنهم كانت سونيا حزينة تطيل النظر صلواتها فدنت منها (الشيطانة الصغيرة) تاتيانا وسألتها في خبث (أتحبين الكونت يا سونيا؟) فأجابت أختها في دهشة (لست أدري. . .)

ولما عاد تولستوي من سمارا إلى قريته والغضب ملء نفسه مما فعل الشرطة بداره ومدرسته، أنساه غضبه زيارة من زوجة بيرز ومعها بناتها في أجمل ملابسهن الصيفية لأخته ماري في ياسنايا بوليانا.

وشاع في نفسه السرور بهذه الزيارة، وكانت تراه عمته تاتيانا وأخته ماري وكأنه من فرط مرحه قد عاد إلى سن العشرين، وباتتا ترتقبان أن يطلب يد ليزا.

وبلغ من حفاوة تولستوي بالفتيات أن عمل مع الخدم في إعداد سرر نومهن بنفسه، وكن في الحجرة التي جعلت لهن يؤدين بعض ما يتطلبه هذا الإعداد وكم ضحكن في مرح وغيظة والتقت عينا تولستوي بعيني سونيا، وكانت بينهما نظرة طويلة وكأنه لم يرها إلا في هذه اللحظة فإن شيئاً يحسه ولا يدري كنهه يسري في هيكله كله، وأن عينيها لتحدثانه حديثاً يفهمه حتى كأنه الهمس، وأن عينيه كذلك لتحدثانها بكل ما في نفسه. .

وضرجت الحمرة وجهها فأشردت نظرتها ولكن بعد أن نفذت إلى قلبه.

وزاره في اليوم التالي صديقه فت وبعض أصحابه فخرجوا مع البنات إلى الغابة قضوا نهارهم فيمرح كان البنات مبعثه كما كن مبعث ما شاع حولهن من جمال وفتنة.

ولما رحلن إلى إفتسي حيث أرادت أمهن أن تزور أباها في ضيعة التي ورثها من أمها في هذه القرية التي كانت تبعد نحر أربعين ميلاً عن ياسنايا، لم يطق تولستوي الوحشة بعدهن، فلحق بهن على جواد أبيض ونظرن فإذا به بينهن.

وكان القصر في إفتسي حافلاً بالضيوف، وكان عدد السيدات والآنسات بينهن بنات بيرز يتهيأن للرقص، ولكن تولستوي كان في شغل بما توسوس به نفسه عما يدور حوله، وجلس يحدث رب الدار حديثاً كانت تكدره خلجات وجدانه، فأن كل شيء من مراح الشباب وزياطه يذكره بشبابه الذي ينطوي وروحه التي تخمد؛ وإنه ليحس وهو يعد في الرابعة والثلاثين كأن بينه وبين الشباب أمداً بعيداً.

وجلس غير بعيد يترقب ويغالب ما في نفسه من حسرة، وجاءته سونيا تمشي على استحياء وقد حان وقت الرقص فقالت: ألا ترقص؟ فأجابها وهو يخفي همه بابتسامة: إني اليوم أكبر سناً من أن أفعل ذلك. .

وقد جعل باله في تلك الليلة إلى سونيا، يدور بعينيه إلى حيث تكون، وكانت سونيا تقابل نظراته بنظراتها وكأنما تقول له إنها تدرك ما في نفسه، وكان يحمر وجهها في صورة ملحوظة كلما دنت منه.

ولحظت ذلك عينا ليزا فأفلت منها زمام أعصابها وقالت لأختها الصغرى، بعد الحفلة وهي تجهش: أن سونيا لتحاول أن تأخذ مني الكونت. . ألم تري ذلك؟ إن مسلكها وان عينيها وإن رغبتها في أن تنفرد به، كل أولئك الآن يبدو جلياً. . .

وجلس تولستوي يحدث رب الدار وأبنته في إحدى الحجرات، ويستعيد ذكريات الماضي، وأنضم البنات إلى أمهن وجدهن ليجلسن يستمعن وكانت أمهن تصيح بهن الفينة بعد الفينة ليأوين إلى مضاجعهن ولكن حديث الكونت كان يسحرهن حتى تبين الجد في لهجة أمهن فقمن متثاقلات لينمن.

وتبعهن تولستوي إلى باب الحجرة، ثم استوقف سونيا قائلا إنه يريد أن يفضي إليها بحديث وخفق قلب الفتاة، ومشت معه إلى منضدة للعب الورق في إحدى الحجرات، ولندع تاتيانا تقص علينا ما كان بينهما من حديث قالت (الشيطانة الصغيرة) في مذكراتها (لقد طلب اليّ أن أغني ولما كان ذلك آخر ما أرغب فيه وقتئذ، فقد هربت إلى الثوى واختفيت تحت البيان. . . وبعد دقائق دخل الحجرة تولستوي وسنويا، وكان يبدو عليهما الاضطراب في صورة غير عادية، وجلسا إلى منضدة اللعب. . . وقالت سنويا: هكذا ترحل غداً؟ ولماذا تعجل على هذا النحو؟ إننا سوف نفتقدك، وأجاب تولستوي: إن ماري وحدها وهي تتأهب للسفر إلى الخارج. وسألته سونيا: أتسافر معها؟ وقال الكونت: كلا. لقد كنت أرغب في ذلك ولكني الآن لا أستطيع. وتراجعت سونيا فلم تسأله لم لا يستطيع فأنها تدرك ماذا يكون الجواب، ورأيت في وجهها ما يشعر أن شيئاً خطيراً يوشك أن يحدث، ووددت أن أخرج من مخبئي ولكني خجلت من ذلك فبقيت ساكتة. وقالت سونيا: هيا بنا إلى الفناء فإنهم لا بد يبحثون عنا؛ وقال الكونت: لا. . أرجو منك أن تظلى لحظة. . . وكان يكتب شيئاً ما على المنضدة بقطعة من الطباشير، ثم قال في صوت متهدج من أثر اضطرابه: أتستطيعين أن تقرئي ما أكتب لك إذا استعملت الحرف الأول من كل كلمة فحسب؟ وأثبتت في وجهه نظرة وقالت: أظن أني أستطيع. وكتب تولستوي الحروف، وكأنما أوحى إلى أختي فقرأت: إن شبابك وتطلعك للسعادة يذكرني تذكيراً قوياً بشيخوختي وباستحالة السعادة على وكان يعنيها تولستوي بعض العون في قليل من هذه الكلمات.

وكتب حروف غيرها، فقرأت إن في أسرتك خطأ حول أختك وحولي، ينبغي أن تعينيني أنت وتاتيانا. . .

هذا ما ذكرته تاتيانا، ونضيف إليه أنها ما كادت تجيب حتى صاحت بها أمها: سونيا! أذهبي إلى سريرك. هل تفعلين؟ وأسرعت سونيا إلى مخدعها.

وبعد بضعة أيام زارت زوجة بيرز وبناتها ياسنايا ثانية لتودع ماري قبل سفرها، وكان تولستوي ساكناً يطيل التفكير اثناء هذه الزيارة، ولما تأهبن للرحيل قال لهن: سوف أذهب معكن إلى موسكو إذ كيف استطيع أن أبقى هنا دونكن. . . إن مقامي هنا يكون من الكآبة والوحشة بحيث لا أطيقه. . . . ثم سافرن فكان معهن حتى بلغن موسكو. . . .

وذهب آل بيرز من موسكو إلى بيتهن الريفي في قريتهم بوكروفسكوي، ووعدهم تولستوي أن يوافيهم اليها بعد قليل. . .

وعادت اليه في وحدته هواجس نفسه، كما كانت حاله مع فاليزيا وأخذ يسأل نفسه عما يشعر به، أهو الحب حقاً أم أنها الرغبة في الحب؟.

وذهب إلى بوكروفسكوي كما وعد، وكانت لا تزال تعتقد ليزا أنه يحبها وأنه سوف يخطبها إلى نفسه؛ وكانت تتنازع الأحلام والمخاوف قلب سونيا.

ووجد تولستوي في بوكروفسكوي معلماً شاباً يدعى بويوف في الخامسة والثلاثين من عمره يخفى في نفسه نحو سونيا ما يبديه تودده اليها وما يشبهه الغزل من حديثه ونظراته؛ وكانت تحس سونيا ميله اليها فأغرته بعض الأغراء، ولكن بالها وقلبها كانا إلى الكونت وأن غاب.

وفعلت الغيرة فعلها في قلب تولستوي، فكان كثيراً ما يأتي إلى القرية وكانت على نحو أثني عشر ميلاً من موسكو وكان يؤثر أن يذهب إلى هناك ماشياً بأكثر الأحيان.

وبات موقفه من الأسرة غريباً فهو لا يتقدم بالخطبة إلى ليزا وأنه في الوقت نفسه وإنه في الوقت نفسه ليكثر من غشيان بيتهم أينما كانوا كما لو كان واحداً منهم؛ ولذلك لم يكن عجبا أن يظن الطبيب أن جمال امرأته هو الذي يجذب إلى بيته هذا الكونت الغامض.

وكان لا يفتأ يسأل تولستوي نفسه أما آن له أن يستبطن دخيلة سونيا وأن يدرك حقيقة عقلها ووجدانها، فإن اختياره زوجة لا تصلح له يعدو عنده كارثة لا يكون معها رجاء. . .

وسألها هل تكتب مذكرات، فقالت: لا ولكنني عبرت عن حقيقة شعوي في قصة كتبتها؟

وألح عليها الكونت أن يقرأها فأبت اول الأمر، ثم تظاهرت أمام إصراره أنها تعطيها إياه على كره.

ترى هل كتبت سونيا هذه القصة ليقرأها تولستوي؟ وهل ما يكاد يؤدي إلى الحزن بموضوعها.

كان في القصة رجلان: أولهما البرنس دوبلتسكي، وهو في منتصف العمر نشط ذكي قليل الآراء، ليس على قدر كبير من الوجاهة؛ وثانيهما فتى في الثالثة والعشرين، هادئ ساكن يتمسك بكثير من المثل العليا وأسمه سمير نوف.

وكانت بطلة القصة تدعى هيلين وهي فتاة جميلة ذات عينين دعجاوين ساحرتين؛ ولهيلين أختان واحدة أكبر منها تدعى زنايدا وهي فتاة بارد الطبع، والأخرى أصغر منها وتدعى نتاشا وهي بنت في الخامسة عشرة لعوب مرحة.

وكان يغشى دوبلتسكي بيت الأسرة دون أن تخالجه أفكار الحب؛ وكان سمير نوف يحب هيلين، وكانت تحس بميل نحوه، وقد أقترح عليها الزواج ولكنها لم تستطع أن تقطع برأي وأعترض أهلها على هذا الاقتراح من شاب في مثل سنه وعدوه بعض عبث الشباب، ثم اضطرته ظروف العيش إلى السفر فغاب غيبة طويلة.

وكانت زناديا تميل إلى دوبلتسكي، وكان يكثر غشيان البيت ولكنها ظلت بحيرة من أمره كما كانت هيلين في حيرة من أمر شعورها لا تدري ماذا تريد، ولا تستطيع أن تقول حتى لنفسها أنها أوشكت إن تحب دوبلتسكي؛ وكان يؤلمها أنها ربما كانت تخدعه وتخدع أختها؛ وطالما حاولت أن تغالب عواطفها ولكن

تلك العواطف كانت تغلبها؛ وظهر من دوبلتسكي أنه يحبها أكثر مما يحب أختها وذلك ما جعله يبدو في نظرها أكثر مما كان جذباً لها، لم تفهم حقيقة شعوره وكان يتعبها ويضايقها غموضه وانطواؤه على نفسه.

وعاد سمير نوف، ولم تطق هيلين أن ترى ما يظهر من تألم إذ شعر أنها تحب دوبلتسكي، فاعتزمت أن تدخل الدير؛ ثم أنها احتالت حتى قرضت بين دوبلتسكي وأختها زناديا، وزفت هي بعد ذلك إلى سمير نوف.

سهر تولستوي حتى قرأ القصة ولقد وقف عند أشياء فيها ومن أهمها ما وصف به دوبلتسكي من بعد أن الوجاهة ومن غموض في الفكر. . . أهذه صورته في نفس سونيا؟

لقد طالما كانت هيأته مبعث ألم لنفسه وهو صغير فهل يتجدد اليوم ألمه وهو في الرابعة والثلاثين؟. ذلك ما تحدثه به نفسها بعد قراءة القصة يسمى نفسه دوبلتسكي؟

وما هذه الخاتمة التي أختارها لقصتها؟ أتنصرف عن دوبلتسكي فتتزوج سمير نوف؟ أتريد بذلك إغراءه وإخراجه من تردده، أم أنها تؤثر عليه سمير نوف؟ ومن يكون سمير نوف هذا؟ أهو بويوف الذي تطارحه الحديث وتظهر له الود، أم هو ذلك الضابط الشاب بوليفانوف؟ وهل تستعمل سونيا على التقريب بينه وبين أختها ليزا؟

ألا تحب سونيا هيئته فهي لذلك غير واثقة من إنها تحبه؟ يا لها من حيرة! لقد كتب في مذكراته في الثامن والعشرين من أغسطس سنة 1962 بعد قراءة القصة بيومين يقول (أيها الوجه القبيح لا تحلم بالزواج. . . أنك لست أهلاً لهذا. . . وأن أهليتك لمن نوع أخر وأنه لكثير ما منحته منها).

وعلى الرغم من ذلك ذهب إلى الضيعة في اليوم التالي فلما رجع أثبت في مذكراته قوله (لا شئ من حب كما سلف ولا من غيره حتى ولا من ندم، ولكني لا أجد مثيلاً لحالتي وذلك ما يجعلها حلوة. . . كانت ليلة لذيذة وكانت العواطف رقيقة سارة أن بويوف في غاية الذكاء وفي غاية الرقة) وكتب في ماء اليوم التالي يقول (لست أغار قط من بويوف إذ يتحدث إلى سونيا ولا أستطيع أن أصدق أن يكون ذلك حقيقة حالي. إنها كذلك تتكلم في حزن وهدوء. . . أيها الأحمق أنك غير أهل لها. . . . لقد قضيت الليلة معهم. . . . لم أنم. . . أنها هي أبداً. . .)

وعادت الأسرة إلى موسكو فكان يزورها كل يوم، وما زال أهل الدار ما عدا صوفيا وتاتيانا يعتقدون أن الكونت يتجه بقلبه إلى ليزا. . .

وظل على هذه الحال أسبوعين بعد ذلك لا يقطع زيارته ولا يجمع عزمه على رأي؛ ولقد جاء في مذكراته في السابع من سبتمبر قوله (لقد بقيت يومين بالبيت أفكر على انفراد في أمري لا تدفع نفسك يا دوبلتسكي حيث الشباب والجمال والشعر والحب فإن لهذه أيها الشيخ من هم أصغر منك؛ إن موضعك في صومعة من صوامع العمل حيث تطلع من عزلتك في سرور وهدوء على سعادة الآخرين وحبهم. لقد عشت في هذه الصومعة وسأعود إليها) وأثبت بعد ذلك بيومين قوله (أي دوبلتسكي لا تحلم. . . لقد كتبت لها كتاباً لن أرسله، لم أستطيع أن أتم لمدة ثلاث ساعات؛ لقد حلمت وعذبت نفسي كما يفعل غلام في

السادسة عشرة) وقال في اليوم التالي (إني أشعر بالحب أكثر من أي يوم سلف. . وإن الأمل لا يزال في أعماق نفسي يجب أن أحل هذه المعضلة. . . لقد بدأت أكره ليزا وإن كنت أرثى لها. . أعني يا إلهي وأرشدني. . إن أمامي ليلة طويلة فارغة أقضيها، ذلك يؤلمني أنا الذي طالما ضحكت من آلام المحبين! كم ذا رسمت من خطة كي أصرح لها ولتانيا ولكل امرئ ولكن عبثاً حاولت. . . لقد أخذت أزدري ليزا من كل قلبي).

كان مرد هذه الحيرة الشديدة إلى أنه يخشى ألا يكون ما يحسه نحوها حباً كما يكون الحب؛ كان يخاف من نفسه على حد تعبيره، ويزيده خوفاً أنه كلما تدسس إلى شعورها ليتبين ما إذا كانت بها عيوب وجد نفسه منجذباً إليها. .

وفي الثاني عشر من سبتمبر كتب في مذكراته (إنني أحب اليوم على صورة لم أكن أصدقها من قبل. . . لقد بلغ بي الجنون أني أخشى أن أقتل نفسي إذا ما لبثت على هذه الحال. لقد قضيت المساء عندهم؛ لقد بدت لي بهيجة، ولكنني دوبلتسكي القبيح يجب أن آخذ أهبتي وشيكا. لا أستطيع النكوص الآن، ولو أنني دوبلتسكي إلا أن الحب غيرني. لقد سنحت لي فرص ولكني لم أغتنمها. . منعني الخوف، ولكن كان على أن أتكلم في بساطة إني أحب أن أعود إليهم فأذكر كل شئ أمامهم جميعاً)

وفي اليوم التالي كتب يقول (لقد سطرت كتاباً سوف أرسله إليها في غد. . . قوَّني يا إلهي. . . ما أشد خوفي من أن أموت، فأن مثل هذه السعادة تبدو لي مستحيلة. رب أعنيّ وأرشدني)

وقال بعد ذلك بيوم (لم أنم إلا ساعة ونصف ساعة، ولكني على الرغم من ذلك منتعش جد مهتاج)

وفي اليوم التالي كتب يقول (أخفقت لم أحدثها. ولكني قلت لها إن لدي شيئاً أحب أن أحدثها عنه)

وذهب تولستوي في مساء السادس عشر إلى آل بيرز وفي جيبه الكتاب الذي أعده والذي لبث في جيبه ثلاثة أيام، وألفى صوفيا جالسة إلى البيان، فجلس إلى جانبها، والانفعال ملء نفسه وبدنه، وأحست انفعاله فسرى إليها قدر عظيم منه فتشاغلت بدور كانت تلعبه قبل مجيئه. ودخلت تانيا فطلبت إليها أختها أن تغني تريد بذلك أن تخفي ما في الموقف من اضطراب. . .

وغنت تاتيانا في صوتها الرائق الحلو، وناداها تولستوي باسم مغنية كبيرة هي مدام فياردو إعجاباً بها، ثم قال لنفسه إذا ختمت تاتيانا لحنها خاتمة جيدة فسوف يعطي صوفيا ذلك الكتاب؛ وكانت تاتيانا موفقة كل التوفيق إذ ختمت لحنها، وانسحبت الشيطانة الصغيرة في لباقة، وقد أحست أنها اللحظة الحاسمة، وما كادت تغادر الحجرة حتى مدَّ تولستوي يده بالكتاب إلى صوفيا قائلاً إنه ينتظر ردها، وتناولته صوفيا بيد مرتجفة، وخرجت به فأسرعت إلى حجرتها وأوصدت الباب وراءها وجلست تقرأ. . (أي سوفيا. . أصبح الأمر لا يطاق؛ لقد ظللت أقول لنفسي طيلة ثلاثة أسابيع سأبوح لها الآن، ومع ذلك كنت أخرج كل مرة وفي نفسي مزيج من الحزن والأسف والرعب والسعادة! وكنت أنظر كل ليلة نظرة إلى الماضي فأسخط على نفسي أن لم أبح لك وأسأل نفسي ماذا عساي كنت أقول لو أني تكلمت. . . لقد ظننت أني أستطيع أن أحبكم جميعاً كما أحب الأطفال، وكنت في إفتسى لا زلت أستطيع أن أقطع ما بيني وبينكم وأعود إلى

خلوتي، إلى عملي الذي يشغل وقتي كله. . ولكني الآن لا أستطيع شيئاً. أشعر أني أحدثت في بيتكم شيئاً من الاضطراب، وأن صداقتكم لي كما تصادقون رجلا شريفاً قد لحقتها بعض الشوائب، ولذلك لا أستطيع الانطلاق كما لا أستطيع البقاء. . وإني أحمل هذا الكتاب معي وسوف أقدمه إليك إذا لم أجد في نفسي من الشجاعة ما أبوح لك معه بكل شئ. . . وإني أعتقد أن أسرتك تنظر إليّ نظرة خاطئة إذ تحسب أني أحب أختك اليزابيث وليس هذا بحق، فإن قصتك لا تبرح عقلي قط، وذلك لأني بعد أن قرأتها أصبحت أعتقد أنه غير خليق بي، أنا دوبلتسكي أن أحلم بالسعادة، لقد كتبت لك ونحن في إفتسي أقول إن شبابك ومرحك يذكراني في صورة قوية بتقدمي في السن وباستحالة السعادة عليَّ. . . ولكني حينذاك كنت أكذب على نفسي ولا زال هذا حالي؛ إنك فتاة أمينة صريحة، فدليني ويدك على قلبك دون أن تتعجلي _وإني أناشدك الله ألا تتعجلي _ماذا عسى أن أفعل؟ لو أنني علمت منذ شهر أني سوف ألقى مثل هذا الألم السار الذي عاينته طيلة هذا الشهر لضحكت حتى يقتلني الضحك. نبئيني بكل ما في نفسك من إخلاص: أتكونين زوجة لي؟ إذا كنت تستطيعين أن تقولي: نعم وان تقوليها من أعماق نفسك فقوليها، ولكن إذا كنت تحسين أدنى شك فقولي لا. . . نشدتك الله أن تفكري ملياً في الأمر، وإني لأمتلئ رعباً كلما فكرت في قولك لا، ولكني أوطن النفس على تحمل ذلك، وسوف أقوى على تحمله بيد أنه من الأمور المفجعة ألا تحبني من تكون لي زوجة بقدر ما أحبها

وسمعت سونيا دقات عنيفة على الباب، وصوتاً هو صوت أختها ليزا يناديها في إلحاح أن تفتح ففتحت فقالت أختها! ماذا كتب لك الكونت؟ نبئيني. ووقفت صوفيا جامدة والكتاب في يدها، فقالت ليزا صائحة أخبريني الساعة ماذا كتب لك الكونت فقال صوفيا في عبارة فرنسية: إنه طلب يدي؛ فأجهشت أختها قائلة: أرفضيه. أرفضيه من فورك!. .

ودخلت أمهما فعملت في لباقة على أن تبعد بين الأختين فتخرج بهما من هذا الموقف الكريه وكان الكونت إذ ذاك في الثوي ينتظر، والقلق ملء نفسه، ويداه خلف ظهره، وقد استند إلى الموقد وفي وجهه صفرة لم يعرف مثلها من قبلن وأرهف سمعه إلى وقع أقدام خفيفة، وإن قلبه ليثب بين ضلوعه ودخلت صوفيا فنظرت إليه قائلة: نعم. . . ثم ولت مدبرة.

وتقدمت ليزا فهنأت أختها، ثم مشت إلى الكونت فهنأنه وقبلته في كثير من الكرم والنبل؛ وجاءت الأم فهنأت صوفيا وفي نفسها من السرور بقدر ما فيها من الشفقة على ليزا.

وكان رب الدار قد مسته وعكة من قبل فتنذرع بها وتردد فلم يهنئ الكونت، ولم يبد ارتياحه لأنه كان يحب ليزا، وأظهر الطبيب الشيخ كثيراً من الرثاء لابنته، ولكن ليزا نفسها ما زالت تستحلفه والدموع في عينيها ألا يغضب أختها، حتى اطمأن فؤاده فذهب إلى تولستوي وصافحه مهنأ.

وتصادف أن كان اليوم التالي يوم ميلاد الأم، وكانت دار الطبيب بيرز ملأى بالضيوف فأعلنت الخطبة وأقبل الضيوف على العروسين مهنئين. . . وغابت ليزا عن الموائد متوارية من القوم، الأمر الذي

تألم له قلب تولستوي على الرغم مما كان يفيض به من فرح، ولقد تحدث بهذا إلى عروسه، وهو الذي لا يحب منذ طفولته أن يؤلم أحداً. . .

تولستوي الحائر

أتم تولستوي (أنا كارينينا) وقد أصبح في روسيا أحد رجالها المعدودين، وفي أدبائها فارسهم المعلم، وأصبح في أوربا أجد القلة الأفذاذ من أساتذة الفن وأعلامه. وإنه لذو ثراء عريض، وذو بنين، يسكن إلى زوجة اختارها لنفسه عن بينة وحب؛ وهو إلى ذلك يتمتع بالعافية، وقد وهبه الله جسما قوياً لا تسكن حيويته ولا تفتر قوته، وإن موهبته الفنية لتمد اليوم أكثر مدها وإن روسيا كلها لتنظر إليه نظرتها إلى أعظم من أنجبت من رجال القلم في تاريخها، حتى لقد اغتدى اسمه لها مفخرة قومية، واغتدت به تباهي بأن صار لها في أدب الدنيا صفحة مرقومة ومقام معلوم.

ولكنه بين عشية وضحاها ينظر فإذا بهذا كله عنده لا شئ، وإذا يشعر أنه شقي لم يذق مثل شقائه أحد أو يعذب عذابه أحد على الرغم مما يحيط به مما يراه الناس من أسباب السعادة والنعيم إنه ليتقلب على فراشه إذا جنه الليل مسهد الجفنين. ولقد بين أنين المحموم بل لقد يجهش في الظلام كما يجهش الصبى؛ وإنه ليثب من فراشه فيذرع الحجرة حتى يتنفس الصبح. . . وإنه ليجلس إلى مكتبه مطرقاً أو محدقا في الفضاء، لا يفتح كتابا ولا يرفع قلماً؛ وإنه ليعتزل زوجته، ويتكره لأبنائه أو يشيح بوجهه عنهم؛ وإنه ليدفن وجهه ساعات بين كفيه؛ وإنه ليسرع ذات مرة إلى بندقية صيده فيبعدها ويغلق من دونها بابا مخافة أن يقتل بها نفسه؛ وإنه ليترك ما يأتيه من رسائل في غلقها، ولا يحب أن يلقى أحدا من صحابته؛ وإن زوجته لتملئ فرقا وحزنا حتى لتكاد تذهب نفسها عليه حسرات؛ وإن أولاده ليعجبون ولكنهم واجمون. .

ماذا دهاه؟ إن حاله من تلقى ضربة في الظلام تركته يترنح من الألم، وكلما أوشك أن يفيق أخذه دوار فتركه يتخبط ويهذي، لا يدري متى يعود إليه صوابه. . .

ولكن تولستوي لم يتلق الضربة على حين غفلة، فإنه منذ صدر شبابه تهجس في نفسه أسئلة عن الحياة ومعناها،

والغرض منها؛ ولقد رأينا كيف ألحت عليه هذه الأسئلة وهو في القوقاز وشغلته آماله وأحلامه بالصيت والأسرة السعيدة؛ كما شغله عمله على تحقيق هذه الآمال، وعمله في التعليم والمجلة والزراعة؛ ولكن تلك الأسئلة كانت تعاوده بين حين وحين، وهي في كل مرة أشد إلحاحاً عليه منها فيما سلف. . . .

وعظم إلحاحها عليه بعد زواجه فقد كان قبل الزواج بعض ما كان يزيح عن نفسه هواجسها من أمل حلو. فلما

بات الأمل حقيقة ماثلة، التفتت نفسه إلى ما كان يكربها. . .

وظهر أثر تلك المخاوف قويا أثناء كتابته قصتيه الكبيرتين فيما أجراه على ألسنة بيير والبرنس أندرو وليفن؛ ولقد خاف ليفن أن يقتل نفسه من اليأس لأنه لا يرى في الحياة إلا العذاب ثم الموت. . .

وكان يصل به الحال أحيانا أثناء كتابته (أنا كارينينا) إلى ما يخيفه ويخيف زوجته كما أسلفنا، حتى لم يعد أكثر من مرة بينه وبين الجنون إلا خطوة، وما زاده التأمل إلا حيرة ولا دراسته الفلسفة إلا تشاؤماً وضيقاً. . .

وواجهته تلك الأسئلة بعد (أنا كارينينا) مواجهة مخيفة وعاد في إلحاح وفي ضيق يقول لنفسه: لماذا؛ ما وجودي وما الغرض منه؟ ما هذا الذي يسمى حياة؟ ولم كانت الحياة؟. قال في كتابه (اعترف) يصف هذه الحال (لقد أخذتني الحيرة حتى لا أدرى فيم أفكر؛ فإذا نظرت مثلا فيما عسى أن أعلمه أولادي قلت لنفسي: وفيم هذا؟ أو إذا فكرت فيما عساه أن ينهض بالفلاحين سألت نفسي: وماذا يعيني من هذا؟ أو إذا ذكرت ما عسى أن أكسبه من صيت بما كتبت قلت: سوف تغدو أبعد صيتا من جوجول أو بوشكين أو شكسبير أو موليير أو من كتاب الدنيا جميعا، فما جدوى ذلك؟ ولم أحر جوابا قط، وتلح الأسئلة على حتى ما تقبل ريثاً؛ فيجب أن تلقى جواباً على الفور؛ فإن لم أجب عليها صار مستحيلا على أن أعيش. . . ولكنني لم أجد ما أجيب به. . . وأحسست أن ما كنت أضع عليه قدمي قد ذهب هباء، فليس ثمة ما اقف عليه؛ وما عشت زمانا عليه قد ولى، ولم يبق لي شئ. وبلغ بي الحال أن أصبحت أنا الرجل القوي الثري لا أطيق أن أعيش؛ وصارت تدفعني قوة لا تقاوم لأضع لحياتي حداً على صورة ما. ولست أستطيع القول: إني رغبت أن أقتل نفسي، فإن القوة التي كانت تنتزعني من الحياة كانت أقوى وأشمل وأوسع مدى من أن تكون مجرد رغبة. لقد كانت قوة شبيهة بتلك التي كانت من قبل تربطني بالحياة ولكن في اتجاه عكسي).

ويصور لنا حاله بإحدى الخرافات قال: (هناك خرافة شرقية قديمة عن سائح أقبل نحوه وحش هائج في أحد السهول؛ فلجأ هذا السائح هربا من الوحش إلى جب ناضب، ولكنه وجد في قاع الجب غولاً قد فغر فاه ليلتقمه، ولما رأى السائح التعس أنه لا يستطيع أن يصعد من الجب مخافة أن يلتهمه الوحش الثائر وأنه كذلك لا يستطيع النزول إلى قاعه مخافة أن يلتهمه الغول، فقد أمسك بفرع من النبات انبثق من صدع في الحائط وتعلق به؛ وأحس بالتعب يدب في يديه شيئا فشيئاً، وشعر أنه سوف يسلم نفسه عما قليل لا محالة إلى الهلاك الذي يتربص به من فوقه ومن أسفل منه، ولكنه لن يزال متعلقا بالغصن؛ ثم إنه ما لبث أن رأى فأرين أحدهما أبيض والآخر أسود، وقد دارا حول ذلك الغصن، وأخذا يقرضانه؛ وأيقن السائح أن الغصن لن يلبث حتى يقطع فيسقط هو في فم الغول؛ وبينما يرى ذلك، ويعلم أنه هالك لا محالة، إذ يبصر بقطرات من الشهد على بعض أوراق الغصن فيصل إليها بلسانه ويلعقها. . . وهكذا أتعلق أنا بغصن الحياة، وإني لأوقن أن غول الموت يتربص بي وأنه سوف يمزقني كل ممزق. ولست أستطيع أن أدرك لماذا وقعت في مثل هذا العذاب. ولقد حاولت أن ألعق الشهد الذي كانت لي فيه سلوة من قبل، ولكنني لم أعد أجد في الشهد ما يلذني؛ وما برح الفأران الأسود والأبيض، وهما الليل والنهار يقرضان الغصن الذي تعلقت به، ورأيت الغول في وضوح، ولم يعد للشهد طعمه الحلو. وليس أمام ناظري إلا الغول الذي لا مهرب منه والفأران، ولن أستطيع أن أدير عيني عن ذلك؛ وليس هذا حديث خرافة، وإنما هو الحق الذي لا ينكر والذي يفطن إليه كل إنسان).

لم يجد تولستوي معنى للحياة، فما هي إلا عبث، بل إنها واللاشيء سواء؛ ذلك ما رجع به من طول تأمله ومن طول قراءته شوبنهور وكانت وغيرهما، وذلك ما أجاب به عن تلك الأسئلة التي ظلت سنين تلح عليه وتعذب نفسه.

وهذا اللاشيء هو ما أفزعه، ثم إن انتهاءه إليه بعد طول التفكر هو الضربة التي تلقاها في الظلام والتي تركته يترنح ويصرخ من أعماق نفسه الحائرة: ما هذا؟ أين أنا؟ ولم جئت هنا؟ وإلى أين مصيري؟

لقد اهتدى البرنس أندور إلى الحب كما اهتدى بيير، واهتدى ليفن إلى السمو بالروح الخالدة والعزوف عن مطالب الجسد الفاني، ولكن تولستوي خالقهم لم يهتد إلى شئ، وظل حاله كما كان حال ليفن قبل هداه حين وصفه بقوله (عند ذلك تبين في جلاء أن كل حي إلى فناء وأنه هو نفسه ليس أمامه ما يتطلع إليه إلا الألم ثم الموت، ثم الفناء الأبدي، ولذلك استقر رأيه على أنه لن يستطيع بعد أ، يعيش على هذه الحال؛ فإما أن يجد تفسيراً للحياة أو فليقتل نفسه).

ما الحياة إلا وهم. وما سعينا فيه إلا عبث. وما أنفسنا وأولادنا إلا طعام للدود. وما مسراتنا وملاهينا إلا كأصوات الخائفين من الأطفال في ظلام الغابة اللفاء يدرأون بها عن أنفسهم الخوف. وما ذلك الذي نسميه في الحياة جمالا إلا غرور، إن كل ذلك إلا باطل؛ وإن هو إلا اللاشيء. ذلك ما أفضى به إليه تأمله، وذلك ما يعذه ويفزعه ويحيطه باليأس من جميع أقطاره

وليته ينسى! ولكن انى له النسيان وهذه الحياة نفسها تذكره أبداً بفزعه الأكبر منها؛ وهو ما فكر فيها لمجرد الفكر في ذاته، ولكن شيئاً مبهماً خفياً ظل يوجه نفسه هذه الوجهة منذ حداثته، لا ينقطع عنه إلا ليعود إليه أقوى مما كان، وما زال حتى وقف به على حافة الهاوية. .

وما قصر أو تهاون في درس أو قعد عن استقصاء. قال: (ولكني ربما كنت قد سهوت عن شيء أو أخطأت فهم شيء. ذلك ما تحدثت به إليّ نفسي مراراً؛ فليس من الممكن أن تكون مثل هذه الحال من اليأس أمراً طبيعياً في الإنسان. ثم بحثت عن تفسير لهذه المسائل في كل ناحية من نواحي المعرفة بلغها الناس، وبحثت بحثاً مؤلماً طويلا، لا لمجرد الفضول والنظر، وقضيت في بحثي الشاق زمناً، بالنهار وبالليل، أجدُّ كما يجد من أشرف على الهلاك حين يطلب النجاة؛ فلم أعد من ذلك بطائل)

لم يدع شيئاً من العلوم النظرية ولا من العلوم التجريبية، ولكنه لم يجد في العلم بغيته. فما بلغ العلماء من العلم إلا بعض ما يتصل بأبحاث المختصين والمحترفين، أما ماله صلة بالمشكلة الأساسية وهي مشكلة الحياة، فقد أهملوه أو جهلوه. يقول عن العلماء (إنهم هكذا يجيبونك: أما عن سؤالك: ماذا أنت ولم تعيش، فليس لدينا جواب، وليس هذا مما نشغل أنفسنا به. أما إذا أردت أن تعلم قوانين الضوء أو قانون الاتحاد الكيمائي أو غيرها فلدينا أجوبة واضحة محددة عن ذلك لا تقبل الجدل).

ولم يدع شيئاً مما له في الفلسفة صلة بمسائل الحياة، فقرأ سقراط وبوذا وسليمان الحكيم وشوبنهاور واضرابهم، ولكنه لم يرجع من فلسفتهم إلا (بأن كل شيء في الحياة عبث، وأن السعيد هو ذلك الذي لم يولد).

ماذا يقول سقراط؟ أليس هو القائل: (إننا نقرب من الحقيقة كلما أخذنا في الابتعاد عن الحياة، وأن حياة الجسد شر وباطل؛ وعلى ذلك فالقضاء على حياة الجسد من النعيم، وينبغي علينا أن نطلبه؟) وماذا يقول بوذا؟ أليس هو القائل: (إن من المستحيل أن نعيش وفي نفوسنا أن الألم أمر لابد منه، وأننا سوف يلحقنا الضعف ويصيبنا الكبر ويدركنا الموت. . . إلا إنه يجب علينا أن نتخلص من هذه الحياة؟).

وماذا يقول سليمان؟ أليس هو القائل (عبث في عبث وباطل في باطل، وماذا يجني الإنسان من عمله تحت الشمس؟ يمضي جيل ويأتي جيل غيره والأرض هي الأرض قائمة أبداً؛ وكل ما كان هو ما سوف يكون، وما عمل هو ما سوف يعمل؛ ولا جديد تحت الشمس. ولن يذكر ما مضى من الأشياء، وكذلك ما هو آت فسوف لا يذكره من يأتي بعده).

وماذا قال شوبنهور؟ أليس هو القائل: (الحياة هي ذلك الذي كان يجب ألا يكون. . . هي الشر؛ وإن انتهاءنا إلى اللاشيء هو الخير الوحيد فيها).

وهذه الحكمة الهندية القديمة كيف تصور الحياة؟ (كان سكياموني أميراً شاباً يعيش عيشة سعيدة حُجب عنه العلم بالمرض والكهولة والموت. وخرج الأمير ذات يوم للنزهة فبصر بشيخ فقد أسنانه، يتعثر في مشيته، ويبعث منظره الرعب في النفس، فسأل ذلك الأمير الذي لم يكن له علم بالشيخوخة حتى ذلك اليوم سائق عربته، وقد أخذه العجب: ماذا يكون ذلك؟ وكيف وصل الرجل إلى هذه الحال التعسة الكريهة؟ ولما علم الأمير أن ذلك حظ الناس جميعاً، وأنه سوف يصيبه لا محالة يوماً ما، لم يستطع أن يستمر في نزهته، وأمر سائقه فعاد به إلى القصر ليتفكر في هذه الحقيقة. ثم أغلق من دونه الأبواب وجعل يتفكر. ويرَّجح أنه وجد عزاء لنفسه؛ فقد خرج ثانية للتنزه مبتهجاً سعيداً، ولكنه أبصر هذه المرة مريضاً متهدماً أعشى العينين مرتعش البدن، ولما لم يكن للأمير علم بالمرض فقد وقف وسأل عن ذلك. ولما علم أنه المرض، وأن كل إنسان عرضة له وأنه هو نفسه، وهو الأمير القوي السعيد، قد يمرض في غده، لم يطق متابعة سيره وعاد ثانية إلى قصره ليتدبر ويبحث عن عزاء ويرَّجح كذلك أنه أصاب عزاء، فقد خرج يتنزه للمرة الثالثة. ولكنه في هذه المرة وقع على منظر جديد؛ فقد أبصر رجالا يحملون شيئاً ما، فسأل ماذا يكون؟ ولما أخبر أنه رجل ميت قال متعجباً: ميت؟ وما الميت؟ وأخبر أن الإنسان إذا أصبح مثل ذلك الرجل صار ميتاً. فدنا الأمير من الجثة وكشف عنها غطاءها ونظر فيها وسأل ماذا يحدث بعد ذلك؟ فأخبر أنها سوف تدفن في الأرض واستفهم عن سبب ذلك فأجيب: لأن الميت سوف لا يعود إلى الحياة وسوف يتعفن وينتج الدود. وسأل الأمير أذلك حظ الناس جميعاً؟ وهل يحدث لي مثل هذا؟ وهل أدفن وأتعفن وأنتج الدود؟ أتقول نعم؟ إذن فإلى القصر. ولن أخرج بعد ذلك أبداً طلبا للمتعة.

ثم إن سكياموني فقد كان عزاء، وأيقن أن الحياة أعظم شر، وجعل همه كله أن يتخلص منها ويخلص غيره).

هكذا تُصور الحكمة الهندية الحياة وهكذا يراها تولستوي، ولقد فكر كثيراً في أن يتخلص منها. . .

ولكنه يرى كثيراً غيره من الناس يعيشون لا تزعجهم الحياة ولا يكربهم التفكير فيها، فإذا كان لم يجد في العلم هداه ولا في الفلسفة، أفلا ينظر في حياة الناس ليرى كيف يرضون ولا يشقون مثل شقائه؟

وعرف من الناس في الحياة أربعة أنماط: ففريق هم الجهلاء الذين لا يدرون أن الحياة عبث وسخف، وليس له في هؤلاء فائدة؛ لأنه لا يستطيع أن يعود جاهلا. وفريق يعلمون سخفها، ولكنهم مع علمهم يوطنون أنفسهم على تحملها، وهو لا يقدر أن يجاريهم فهو متبرم ساخط. وفريق هم الجادون العاملون الذي يتخلصون من الحياة على أية صورة، وهو لا يستطيع أن يفعل فعلهم لأن شيئاً خفيا يمنعه من ذلك كلما أغراه اليأس. وفريق يرون الحياة زوراً وعبثا وأن لا خير في مستقبل ولا رجاء، ومع ذلك فهم يتعلقون بها وإن تعذبوا، وهو من هذا الفريق.

على أن هناك فريقاً خامساً لا يدخل في هذه الأنماط الأربعة، هم أولئك الذين لا يكترث لهم أحد، وينظر إليهم السادة نظرتهم إلى الدواب، وهؤلاء قد وجدوا لهم في الحياة معنى يعيشون عليه، معنى لا يتصل بالمعقول ولا بالفلسفة، وذلك هو الإيمان.

ولكن إيمان هؤلاء يقوم على أساس من الأرثوذكسية عقيدة الكنيسة الروسية الإغريقية، وهي ما لا يستطيع أن يحمل عقله على قبوله. . .

يا للحيرة! إن العقل يفضي به إلى إنكار الحياة نفسها، وإن الإيمان يقضي أن يعطل العقل. . . أي بلاء هذا؟ وأي ليل معتم!

ولكنه علم فيما علم قول المؤمنين إنه لابد من إعداد النفس للإيمان حتى تؤمن؛ وإذاً فليدع العقل جانباً وليناقش رجال الدين، ولينظر في كلامهم لعله يصل إلى قلبه، وليقرأ ما كتبه آباء الكنيسة، وليطالع سير القديسين، وليتعبد فيقيم الشعائر جميعاً، وليزر الأديرة، وليذهب إلى الأب الصالح أمبروز، ذلك الذي كان يستعينه جوجول والذي استعانه دستويفسكي وسولوفييف؛ وفعل ذلك جميعا ولكن الشك مازال يأخذ بخناقه ويكاد يزهق روحه. . .

ويقرأ العقيدة الأرثوذكسية، وكلما أمعن فيها سخر منها وبعد عن التصديق بها. فما هذا التثليث؟ وما هذا التحول إلى دم المسيح ولحمه؟ وما تلك المعجزات التي تنسب إلى القديسين؟ وما تلك الأدعية والصلوات والطقوس؟ أذلك مما يقبله العقل؟ كلا ثم كلا

ثم يحاول أن يطرد الجحود من نفسه فربما كان الجحود هو ما يحول بينه وبين الإيمان. ويقول لنفسه دائما إنه مستعد لأن يؤمن. قال في كتابه (اعتراف) يصف ذلك: (لقد اتجهت صوب الإيمان لأني لم أجد شيئا خارجه إلى الخراب. وعلى ذلك فما دمت لا أستطيع أن أطرح عقيدتي جانبا فقد صدقت وخشعت. وقد أحسست في قلبي من القنوت والخشوع ما جعلني أفعل ذلك. ثم إني عدت فخشعت وازدردت الدم واللحم من غير سخرية في نفسي رغبة مني في أن أصدق؛ ولكني أذكر ما مر بي من صدمة وأرى ما ينتظرني فيما هو قادم، فلا أملك أن أظل مصدقا).

وإذ يرى نفسه في بحر لجي من الحيرة يسأل نفسه: ماذا يريد أن يعرف على التحديد ليلتمس السبيل إلى معرفته؟ فيكتب على رقعة: لماذا أنا حيّ؟ ما سبب حياتي وحياة غيري من الناس؟ وما هدف حياتي وحياة غيري؟ ماذا تعني ثنائية الخير والشر التي أحسها في نفسي؟ ولماذا هي قائمة فيها؟ وعلى أي وجه ينبغي أن أحيا؟ وما الموت؟ وأهم من ذلك كله وأكثره تعقيداً كيف أنجي نفسي؟ ذلك أني أحس أني هالك، فإني أعيش ثم أموت؛ وإني أحب الحياة وأخاف من الموت، فكيف أنجي نفسي؟)

وإذا لم يبق له إلا الدين والإيمان، فأي أيمان؟ إنه إذا قارن في نفسه بين تلك الأوقات التي آمن فيها بالله وبين تلك التي أنكر فيها الله، وجد الأولى نيرة فيها شفاء للنفس، ووجد الثانية مظلمة فيها العناء، ولكن الإيمان بالله شيء، والإيمان بما تقول الكنيسة الأرثوذكسية شيء آخر. . .

ولا يزال يطيل القراءة في العقيدة الأرثوذكسية، ولا يزال يقرأ الأديان جميعاً في كتبها، ولا يزال يزور الأماكن المقدسة علها توحي إلى نفسه الإيمان، ومن ذلك مدينة كييف وما تزدحم به من كنائس وأديرة قديمة. ولا يزال يستفهم القسيسين والطيبين من الطاعنين في السن من الناس. ولا يزال يقيم الشعائر ويعظمها. . ثم لا يعود من ذلك جميعاً بشيء إلا الجحود بما تقول الكنيسة.

تلك حال تولستوي وما صنع في تلك السنوات التي أعقبت زواجه حتى أتم كتابه (أنا كارينينا). ثم تلقى الضربة التي جعلته يتخبط في الظلام، والتي جعلته يلقى بعيداً بحبل كان في متناوله مخافة أن يشنق نفسه، ويجعل دون بندقيته قفلاً غليظاً كيلا يصوبها إلى قلبه. وما تلك الضربة إلا أنه بعد طول عنائه يرى الحياة لا شيء، ولكم يزعجه اللاشيء ويوبق روحه ويزعزع فؤاده!

ولكن إذا كان لا يحب أن يقتل نفسه فما معنى أن يستسلم لليأس؟ وكيف يحيا إذن ويطيق حياته إذا كان لا يرضى الموت ولا يرضى الحياة؟

إذن فليجاهد على وعورة الطريق وبعد الشقة وظلمة المفازة، ليجد معنى للحياة ترتاح له نفسه، ويسعد به البشر. ولئن وقف به ما سلف من جهاده وقفة التائه الذي يخيفه الفضاء والظلام، فلخير له أن يمضي لعله يجد بعد الضلال هدى وبعد العذاب راحة. ولأن يتحمل وعثاء السفر مهما عظمت أهوَن عليه من هذه الوقفة التي تكاد تلقيه في قرار سحيق. .

لقد قضى من عمره قرابة ثلاثين عاماً يعمل للفن، فليقض ما بقى من عمره عاملاً على تقرير معنى الحياة، وليس ما يمنع أن يكون الفن أداته فيما هو قادم إذا لزم الحال. . .

وسوف يعمل تولستوي دائباً ناصباً، حتى ليعد جهاده في سبيل غايته من أروع فصول الكفاح في خطى البشرية، فليس أبلغ في معاني البطولة من تحمل مثل ما سوف يلقاه من عذاب، ولا من الصبر على مثل ما سوف يعترض له من صعاب. ولسوف يغدو تولستوي في تاريخ الفكر الحديث، والأدب الحديث، والفن الحديث، بجهاده الهائل منقطع القرين في إخلاصه وحميته وثباته. أجل، وسوف يرتفع إلى منزلة وسط بين الأنبياء والناس.

المحتويات

طفولة ونسب 3
غلام نابه 15
فتى حائر 20
طالب فاشل..... 25
بين الجد واللهو 30
بين العبث والندم 34
روسيا لا تزال في الغسق..... 38
خيوط من النور 42
هجرته إلى القوقاز..... 48
زواج تولستوي..... 57
تولستوي الحائر 68